ماسریان

الناشر

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

المدير الفنى

أحمد جابر

تصميم الغلاف

يسرا عبد العزيز

دار النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى

- الحي الأول- مدينة الشيخ زايد -

الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢

٠٠٢ -٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

2015/5883

ISBN: 978 - 977 - 6580 - 49 - 7

هدی عامر

ماسریان

۲۰۱۷

ماسريان

أنا شاب في الحلقة الخامسة والثلاثون من عمري.. أعزب وأسكن في منزل بسيط مكون من حجرات قليلة ومؤثث بأثاث متواضع..

أمي سيدة ريفية ذات إرادة قوية.. حكيمة التصرف ومحبوبة من كل المحيطين بها.. وفي بعض المواقف عنيدة.. ومن هذا العناد كان الإصرار على أن تتخطى أي عقبة تصادفها أو تقف في طريق ما تريد تحقيقه.

صنعت أمي «نولا» صغيرًا لنسج السجاد اليدوي من الخيوط وفضلات الأقمشة والقصاقيص الصغيرة، وكانت تبيع هذا السجاد في الأسواق وتصرف جزء من ثمنه على البيت والجزء الآخر تدخره لتصرف على تعليمي...

كلما جلست معها، كانت تنصحني بالتفوق في الدراسة وأن أحصل على أعلى التقديرات العلمية في كل المستويات، لكي أنال الشهادة التي بفضلها سأكون من ذوي الشأن..

وعندما توصيني بذلك تبكي أحيانا قائلة: ليس لنا في الدنيا شيء سوى شهادتك يا بني.. إنها سندنا حتى لا تحتاج وتصبح ميسور الحال.

عاهدت أمي على أن أحقق لها هذه الأمنية مهما كلفتني من جهد.. فرغبتها تساوي عندي الكثير وأتمنى ألا أخذلها أبداً...

علمتني أمي أيضا الفضيلة والعطف على الفقير والضعيف وخاصة اليتيم.. كانت تحثني على هذا قائلة: هذا العمل ثوابه عند الله كبير.

ظهرت نتيجة الإمتحانات ونجحت بتفوق وتخصصت في دراسة الإقتصاد.

* * *

وبفضل تقديراتي العلمية الممتازة عينت بوظيفة محترمة وبمرتب مغر في شركة كبيرة، كنت موظف ملتزم يقدر مسئولياته ويحافظ على مواعيده، واشتهرت بحسن المعاملة التي عشت طول حياتي أتعلمها من والدتي في كل تصرفاتها.

ورغم ما حققته من نجاح إلا أني كنت حزينا مهموما لمرض والدتي الذى يتزايد يوماً بعد يوم.

وذات ليلة هاجمت أمي أزمة عنيفة. فأدخلتها المستشفى مرة أخرى لإجراء آخر الفحوص المطلوبة، فأوصاني الطبيب بسرعة إجراء العملية لها وأكد أن النتيجة ستكون مطمئنة جداً.

تركت والدتي بين الأطباء ودفعت مبلغا تحت حساب مستشفى لحين إيجاد حل في موضوع أجر العملية المرتفع..

تعودت أن أذهب مرة كل شهر إلى مكتبي مساء لأرتب أوراقي وأدراج مكتبي والدواليب الخاصة بالرسومات الهندسية، وأمزق الأوراق غير المرغوب فيها وألقيها بسلة المهملات. وأيضا أجرد الخزينة التي بها أموال المشروع الذي أشرف عليه.. وكان هذا العمل يتطلب مني التأخر في مكتبي إلى ما بعد منتصف الليل أو أكثر من ذلك.

* * *

ذات ليلة ذهبت لتنسيق وترتيب أوراقي، وعندما فتحت أحد أدراج المكتب لأطلع على محتوياته وجدت بين الأشياء دمية من البلاستيك لقطة ضعيفة هزيلة، فألقيت بها في سلة المهملات لكنها لم تقع بالسلة وسقطت على الأرض، فأصدرت صوتاً مرتفعا ضايقني بعض الشيء..

أخذت في إخراج باقي محتويات الدرج، وفجأة سمعت صوت فرقعة وهزة أرضية شديدة وكأنه زلزال هزّ المبنى كله مما هزني أنا وأدراجي وكل ما في المكتب، فجعلني أهرع الى النافذة لأستطلع الأمر.. وفي ثوان معدودة سكن كل شيء وهدأت الأصوات وكأن شيئا لم يحدث..

ذلك الحدث جعلني أتوقف عن إتمام عملي الذي بدأته، وجلست على كرسي فوتيه بالمكتب وحمدت الله على أن ما حدث انتهى سريعا.

* * *

وفي ظل ذلك السكون سمعت مواء قطة كأنه أنين حاد، فالتفت لأبحث عنها فوجدتها قطة مسكينة خائفة ترتعش وكأن بها مرض، فأشفقت عليها لأني أعرف الخوف وما يسببه للإنسان. فمنذ لحظات كنت خائفا أنا الآخر مما حدث من الهزة الأرضية.

وبدون تردد أخرجت من جيب معطفي باكو من الشيكولاتة وقسمته بيني وبين القطة المسكينة نصف لها والآخر لي كتصبيرة لحين عودتي للمنزل لتناول العشاء.

بعدما أكلت القطة البائسة صف باكو الشيكولاتة وجدتها تنظر لي وكأنها تطلب الطعام مرة أخرى، فركعت على ركبتي أمامها ووضعت باقي الشيكولاتة في كف يدي وابتسمت لها وربت بيدي الأخرى على ظهرها ثم قلت: هاك النصف الآخر ففي امكاني شراء غيره أما أنت فللأسف لا تقدري.

عندما نظرت في عين القطة الجائعة وأنا جالس أمامها ماداً يدي لها بباقي الشيكولاتة وجدت ويا سبحان ما وجدت.. عيون جميلة، أجمل ما رأيت في حياتي، فيهما جمال من الطبيعة الخلابة.. عيون بها كل ما خلق الله من روعة تأخذك إلى أبعد ما يكون من الراحة النفسية لتتعمق وترى خيرات الدنيا.

أحسست بأني داخل تلك العيون، رأيت جبالا هائلة من الماس تتدفق بينها شلالات مياه ترتطم على صخور من زمرد ومرجان ترتفع في كل الأركان وتحيط بقصر فخم رائع الجمال.

كما رأيت كرسي عرش سبحان من أبدع ينعكس نوره على كل المكان وبجواره تاج صغير كأنه لعروس سعيدة لا تعرف الأحزان.

فجأة شعرت برأسي يدور بشدة، وألم ما بين عيني جعلني أخرج مسرعاً من مكتبي إلى دورة المياه لأضع كمية كبيرة من ماء الصنبور الذي فتحته عن آخره ليتدفق الماء بغزارة على رأسي حتى يخفف هذا الألم.

قلت لنفسي: ما هذا؟ هل أنا جننت؟ ما كل هذه التخيلات التي رأيتها.. هل جمال عيني هذه القطة المسكينة يجعلني أرى كل هذه المناظر العجيبة. إنها سريالية تفوقت بها على كبار الرسامين المحترفين.

* * *

أغلقت مكتبي بعد أن قرأت بعض الآيات القرآنية ليستكين قلبي، ثم تركت المبنى وأنا أسير بخطى واسعة أتنقل من شارع الى شارع لكي أصل بيتي بأسرع وقت.

وأثناء سيري سمعت وقع أقدام تتبعني فتسمرت في مكاني، ثم التفت خلفي فإذا بي أرى أربعة أشخاص، أحدهم يحمل مطواة فى يده شاهرا إياها مهددا وهو يأمرني بلهجة عنيفة لأعطيه كل ما معي من أموال.

وبسرعة أخرجت ما فى جيوبي وأعطيته له، بعدها طلب أن انزع ساعة يدي أيضا فخلعتها بهدوء لأتقى شره.

وعندما مددت يدي بها لأعطيها له فجأة أضيء المكان بنور ساطع لا أعلم من أين أتى مما جعلني أتبين وجه صاحب المطواة بوضوح..

نظرت له برهة لأتعرف على ملامحه، وفي لحظة ودون أن ألمسه إذا بالرجل يسقط مغشيا عليه وتندفع الدماء من أذنيه وفمه وأخذ يرتجف ويتلوى وكأن به ألما شديدا وتبعثرت أشيائي من يده.. وفرّ باقي اللصوص هاربين.

وفي لحظة خطفت من على الأرض محفظتي وساعة يدي وجريت بأقصى سرعة ناحية الشارع.. وظللت أجري وأجري حتى وصلت الى بيتي.

* * *

فتحت الباب ثم دخلت وجلست على أقرب كرسي أحمد الله على نجاتي من حادث مؤكد. وبعد لحظات سمعت حركة خفيفة فتلفت لأتبين الأمر فوجدت القطة المسكينة التي أطعمتها بالمكتب تقف ورائي..

ابتسمت فرحا بقدومها وقلت: هل تبعتيني كل هذا الطريق لتكوني معي؟ وهل رأيت كل ما حدث لي دون أن تصدري صوتا ما أروعك!! تعالي من الآن أنتي ضيفتي وونيستي وستكوني قطتي الصغيرة، وسأرعاك حتى تستردي صحتك.

قمت واغتسلت ثم غيرت ملابسي وتناولت كوبا من أعشاب دافئة وقدمت لقطتي كوبا من الحليب وضعته لها في طبق نظيف على المنضدة، وجلست أراقبها وهي تشرب الحليب في هدوء وقلت لها: ماذا أسميكي يا حلوتي سأسميك تشيكي.. اسم من قطعة الشيكولاتة التي أكلتيها، والآن تصبحين على خير يا تشيكي.

رفضت القطة أن تنام في السرير بجواري كعادة معظم القطط الأليفة، لكنها قفزت من بين يداي وجلست بجوار السرير فوق الوسادة على الأرض، فابتسمت لها ونمت نوماً عميقاً بعد يوم شاق ملئ بالمفاجئات.

* * *

أصبحت أزور أمي من حين إلى آخر منتظرا تحديد موعد العملية التى لا أعلم من أين سأجمع تكاليفها مفوضاً أمري الى الله وحده.

كان من عادتي عندما أعود إلى المنزل يوميا أن أجهز طعام العشاء وأتقاسمه مع قطتى تشيكي.

أصبحت القطة بصحة جيدة ونشيطة وكثيرة الحركة بفضل الغذاء الذى أقدمه لها، إنها قطة ذكية أحببتها كثيرا لأنها تؤنس وحدتى ولا تسبب لي أي إزعاج...

وفى أحد الأيام دق جرس التليفون وأنا بالمكتب وسمعت صوت الطبيب المعالج يطلب مني الموافقة على إجراء العملية لوالدتي لأنها في حالة خطرة لتعدد نوبات الألم. فجدت نفسي أقول للطبيب: اجر لها العملية يا دكتور وأنا في طريقي لسداد التكاليف.

لا أعلم لماذا قلت هذا للطبيب، ربما لسماعي أن والدتي فى حالة خطرة وحبى لها دفعنى أقرر أن ينقذها الطبيب أولا حتي أجد متسعاً من الوقت لتدبير الأتعاب بأي طريقة، فأنا على استعداد لفعل أى شيء من أجل إنقاذ والدتي.. أي شيء.

فتحت خزينة مكتبي ونظرت للأموال المكدسة التي أحتاج منها الى مبلغ بسيط لأشترى به حياة والدتي.. هذه الأم العظيمة المكافحة.

ومدت يدي لأختلس المبلغ قائلا لنفسي: سأرده يوما ما.. فلا يعلم عن هذه الأموال سواي ورئيس مجلس الإدارة الذي لم يسألني مطلقاً عن حسابات الخزينة ولم يطلب جردها لثقته بي أولاً ولمشاغله ثانياً..

عندما لمست الأموال وجدت نفسي أتراجع بسرعة وأقفلت الخزينة

وجلست على الفوتيه القريب منها وأمسكت برأسي وأخذت أبكي كطفل بائس.. وقلت لنفسي أبعد كل هذه السنوات من التربية والعلم ونجاحي وحب رؤسائي وزملائي أسرق أو أختلس، ومن أين سأرد هذا المبلغ مرة أخرى؟ لا.. لا لن أفعل وسأجد طريقة أخرى... سأقص على رئيسي ما أعانيه ليسمح لي باستدانة هذا المبلغ رغم أنه كبير جداً ومن الصعب جدا أن يوافق على ذلك.. وسأذهب إلى المستشفى لأرى والدتى ويفعل الله ما يشاء.

* * *

ذهبت الى المستشفى وكانت أمي ما زالت بحجرة الإفاقة بعد انتهاء العملية. فقلت لنفسي سأنزل إلى الحسابات وأرى المطلوب مني بالضبط.

وبينما أسير بممر المستشفى نادى على أحد موظفي الحسابات قائلاً صباح الخير يا افندم، قلت أهلاً.. قال تفضل هذا الظرف لك، لقد ذهبت إلى حجرة والدتك ولم أجدك والحمد لله أنى رأيتك فى الوقت المناسب.

قلت له: ما هذا الظرف؟

قال: لقد حضرت سيدة فاضلة ترتدي ملابس عربية وأعطتني حساب المستشفى كله ومبلغ تحت الحساب أيضا وأمرتني أن أسلمك هذا الظرف.

قلت له: ماذا تعني؟ هل حضرت هذه السيدة لدفع حساب العمليه؟

قال: نعم.

قلت: وما اسمها؟

قال: وقعت على الأوراق بالأحرف (ت . م).

سألته: هل أنت متأكد أنها كانت تقصد اسم والدتى؟

قال: تعال معي..

ذهبت معه للمكتب وأطلعنى على الأوراق الخاصة بإجراء العملية وإسم والدتي وتوقيع السيدة.

قلت له وأنا أتصبب عرقاً: ربما تكون إحدى قريبات والدتي جاءت عندما علمت بالموضوع وأنا لم أكن موجوداً.

شكرت الرجل وأخذت المظروف ثم ذهبت إلى حديقة المستشفى وجلست لأتذكر كل أقاربي ربما أخبرتهم والدتي عن العملية وحاجتنا إلى المال، لكني وجدت كل من أعرفهم أشد منى فقرا.

وسقط فى يدي.. من تكون هذه السيدة ومن أرسلها ولماذا لم تكشف عن نفسها أو على الأقل لماذا لم تنتظر لتقابلني؟

قلت لنفسي: ربما تكون هذه السيدة فاعلة خير علمت بالصدفة بحالتنا فتقدمت للمساعدة طمعاً فى الثواب عند الله. على العموم لو ظهرت سأقول لها الحقيقة وأطلب منها أخذ نصف مرتبي شهريا إلى أن أسدد لها

ما قدمته من مساعدة، وسأعتبر هذا المبلغ سلفة لحين مقابلة هذه السيدة الثرية التي أدعو الله أن يبارك فيها.

هدأت نفسي وارتحت لهذا الخاطر وصعدت لحجرة والدتي التي فرحت بلقائي وكان يحيط بها مجموعة من الأطباء وكانت تحت الرعاية الكاملة من فريق المستشفى. فجلست سويعات معها أقبل رأسها ويديها من آن لآخر وأواسيها حتى نامت واطمأننت عليها تماماً..

* * *

ذهبت إلى بيتي بعدما اشتريت كباب وسلطات ومشروبات وحليب وفواكه فرحاً بكل ما حدث لي اليوم من رزق حلال دون أن أغضب الله.. ففرج الله دائماً قريب.

دخلت الشقة وفرحت بي تشيكي ثم أخذت تنط يمين ويسار وتدور حولى وتلعق يداي ثم مسحت على شعرها وقلت لها:

وجهك حلو عليّ يا تشيكي فمنذ دخلتي بيتي والله يقف دائماً بجواري في المآزق، لقد كدت اليوم أن أغضب الله سبحانه وتعالى لكنه حماني ونجاني وبفضله أجريت الجراحة لوالدتى وسددت المبلغ المطلوب لسيدة مجهولة أكثر الله من أمثالها. هيا يا قطتى نأكل سوياً بهذه المناسبة.

جلسنا نأكل في صمت ثم أجلستها على الوسادة المجاورة لسريري ونمت نوما عميقا هادئا منذ دخول والدتى للمستشفى.

مرت أيام تحسنت فيها صحة والدتي كثيرا ومنّ الله عليها بالشفاء وقرر الأطباء خروجها من المستشفى بعدما أصبحت بصحة جيدة، ونصحوا بأن تقضي بضعة أشهر فى جو جاف، واقترحت والدتي أن تقيم مع صديقة لها زارتها عدة مرات بالمستشفى عندما علمت بمرضها وهذه الصديقة تسكن في حلوان وهى بالمعاش الآن وتعيش وحدها ثم قالت:

على الأقل ستؤنس وحدتي خاصة أنك تقضي معظم النهار خارج البيت.

فقبلت يديها موافقاً في الحال لأن طلباتها بالنسبة لي أوامر.

* * *

مرت أيام تقدمت فيها صحة والدتي كثيرا ومن الله عليها بالشفاء وأوصى الأطباء بخروجها من المستشفى بعدما أصبحت بصحة جيدة، وطلب الأطباء أن تقضي بضعة أشهر فى جو جاف.

طلبت والدتي أن تقيم مع صديقة لها زارتها عدة مرات بالمستشفى عندما علمت بمرضها وهذه الصديقة تسكن في حلوان وهى بالمعاش الآن وتعيش وحدها ثم قالت والدتي على الأقل ستؤنس وحدتي خاصة أنك تقضي معظم النهار خارج البيت، وقبلت يدي والدتى موافقاً في الحال لأن طلباتها بالنسبة لي أوامر.

اشتريت لوالدتي مجموعة كبيرة من الملابس الجديدة وملأت صندوق كبير من خيرات الله من فواكه ولحوم وألبان وبسكويت وأغذية محفوظة ومشروبات وعصائر وكل ما تحتاجه هي وصديقتها والبركة طبعا فى

مظروف نقود فاعلة الخير.

أعطيت لوالدتي مبلغا وقلت لها: إن شاء الله بعد ما تستردي عافيتك سأجهز لك أوراقك لتذهبي لأداء العمرة وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت وصديقتك عرفانا مني بجميلها.

قبلتني والدتي ودعت لي بحياة كريمة، وعندما رأت والدتي تشيكي قبلتها وسلمت عليها ثم قالت لها: أحسنت يا تشيكي مرافقة ابني، كلمني كثيرا عنك فأنت أنيسته ويصفك بأنك قطة ذكية ووفية.

قلت في نفسي: هذا أمر غريب جدا فوالدتي كانت تكره القطط وتصفهم بالخيانة؟

خرجت والدتي وأنا أبتسم لهذا الوداع الظريف معتقدًا إن والدتي تحاول إرضائي ولا تريد أن تغضبني لاقتنائي للقطه..

أوصلت أمي إلى صديقتها التي بدورها شكرتني على كل الهدايا.. وتركتهم عائدا للبيت والوحدة.

* * *

ذات ليلة حوالي الساعة الثالثة صباحا سمعت رنين جرس الباب متلاحقا وكأن شيئا خطيراً قد حدث، فخرجت مهرولا بملابس نومي وفتحت الباب وإذا بجارتي تصرخ من شدة الضرب وزوجها خلفها ممسكا بها تئن وتتوجع.

وبسرعة البرق أمسكت به ورفعت يده اللعينة عن المسكينة، لكن للأسف أين أنا منه فهو مدرب ألعاب قوى، جسمه يشبه الملاكمين أو المصارعين، وإذا صفعنى على رأسي سأموت فى الحال، لكن قدرة الله وعظمته فوق كل قدرة..

نظرت لعينيّ الرجل لحظة وأنا ممسك بيده وإذا به يخر على الأرض فى حالة تشنج كاملة وتندفع الدماء من أذنيه وفمه وأنفه. فحمدت الله لأنه نجاني للمرة الثانية وبنفس الطريقة التي نجانى بها من اللصوص الذين قابلتهم بعد منتصف الليل.

أدخلت زوجته بسرعة إلى شقتها وأعطيتها كوب من الماء ثم طلبت شرطة النجدة التي بدورها أحضرت الإسعاف، وطبعا الجيران رأوا القصة والزوجة المغلوبة على أمرها.

تركت الأمر كله فى يد الجهات المختصة بعدما أدليت بشهادتي أنا والجيران ودخلت لشقتي وأنا متعب ومجهد ومشفق على جارتي المسكينة التى استنجدت بي.

سألت نفسي بعد أن هدأت: ما هذا الذى يحدث لى؟ من أين لي كل هذه القوة الخفية؟ كلما نظرت لشخص يحاول أن يعترض طريقي أجده يخر على الأرض غارقا فى دماءه.. هل هذه مصادفة أم شيء ما حدث لي ولم أتبينه بعد؟ أو ربما عناية الله لأنى طيب القلب.

وارتحت لهذا الخاطر ثم ذهبت للفراش ونمت تلك الليله. وفي صباح اليوم التالى أحسست بحركة خفيفة فوق السرير وابتسمت: إنها تشيكي تحاول إيقاظي، يبدو أني تأخرت فى النوم عن المعتاد.

ونهضت بسرعة، توضأت ثم صليت وتناولت فطوري، ثم أطعمت قطتي وذهبت الى العمل في عجلة حتى لا أتأخر عن ميعادي.

استمر الحال هكذا فترة مرت فيها حياتى هادئة وراحة نفسية عالية إلى أن جاء يوم حضرت إليّ جارتى صاحبة المشكلة وقالت إن زوجها طريح الفراش بالمستشفى.. وأنها رفعت قضية طلاق عليه لتطاوله المستمر عليها.

قلت لها: عفا الله عما سلف واعطيه فرصة أخرى ربما يصلح الله من شأنه..

قالت: لا فائدة، أعطيته أكثر من مائة فرصة ولكنه يزداد سوءً، وأرجوك اعتبرني أخت لك إذا احتجت أى شيء فوالدتك جارتي من سنين وسيدة مكافحة وعطوفة، وأنا جئتك الآن لأوضح لك ما تم بشأن زوجي، وأشكرك على ما فعلته من أجلي.

قلت لها: أنت جارتي العزيزة وهذا واجب.

وبعد أيام عدت من عملي الى شقتى وهالنى ما رأيت.. الشقة في حالة بالغة السوء بعدما انكسرت ماسورة المياه وأغرقت المكان، فكلفت البواب بإحضار عامل لإصلاح الماسورة فوراً وحضر بعض الجيران لمساعدتي فى تنظيف الشقه.

وبعد ذلك أتت جارتي وقالت: حاولت معرفة رقم تليفونك في العمل لأبلغك بما حدث فى الشقة فلم أهتدي له، فيا ليتك تعطينى مفتاح الشقة سيكون في الحفظ والصون، وإذا حدثت مشاكل من أي نوع مستقبلا يمكنني المساعدة وإبلاغك عنها.

شكرتها قائلا: لن أنسى لك هذا.

فابتسمت قائلة: لو أردت أن أساعدك في أي أعمال منزلية مثل الطبخ وخلافه سأفعل بإذن الله فأنت أخ لي بل أخ كريم. فشكرتها مرة أخرى وأعطيتها المفتاح.

* * *

بدلت ملابسي بسرعة ونزلت لأتسوق فقابلني المكوجي القريب من البيت وقال لي:

آسف لما حدث لك وأقترح عليك إحضار خادمة لرعاية المنزل ورعايتك، عندي بنت طيبة ويتيمة وأجرها زهيد وإذا أردت أحضرها لك غداً.

قلت له: كم تتقاضى في الشهر؟

قال أتفق معها.. وستكون ونس بالبيت..

قلت: افعل ما تراه مناسبا والله الموفق.

فقال لي: وإذا أحضرتها ولم أجدك.

قلت له: خذ المفتاح من جارتي وهي ستباشرها حتى تنتهي من عملها وسأتفق معك على الراتب بعد عودتي من العمل.

بعد مرور عدة أيام ذهبت لزيارة والدتي بعد انتهائي من العمل وأطلعتها على الموضوع من أول ماسورة المياه إلى الجارة والمفتاح والمكوجي والخادمة.

وردت صديقة والدتي قائلة: عندى خادم طيب عجوز لكنه قوي أعرفه من سنوات، رجل متزن ومهذب وله خبرة في هذا النوع من العمل.. سأتكلم معه لكي يحضر لك أربع ساعات كل يوم وتعطيه أي شيء ستساعده هو أولا لأنه وحيد ومحتاج وتساعد نفسك ثانيا.

فرحت أمي بهذه الفكرة وقالت: هذا أحسن من الخادمة والجارة على الأقل هو رجل ويمنع عنك القيل والقال.

فقلت: افعلي ما يحلو لك يا حبيبتي فما دمت راضية فأنا موافق.

قالت أمى: وكيف ستقابله وأنت متغيب عن البيت طول الوقت في عملك؟

قلت لها: لا يهم أعطه نسخة المفتاح التي معك واجعليه يبدأ العمل إذا أراد.

قبلت يد أمي ثم ذهبت إلى البيت مرتاحا لهذه النصيحة التي قدمتها لي أمي وصديقتها.. ففعلا الخادم الرجل الأعزب أحسن من الخادمة وأتمنى أن يوافق.

لاحظت عند عودتي إلى المنزل مساء كل يوم أجده نظيفا مرتبا وأجد ورقة ملصقة على الثلاجة باحتياجات المنزل وملابسي مرتبة بالدولاب وكل شيء منتظم وجميل كما أحب تماما وحمدت الله كثيرا على نعمته لكني تساءلت:

يا ترى من منهم الذي قام على خدمتي؟.. عم سليمان الخادم الذي أرسلته صديقة والدتي، أم جارتي العزيزة، أم الخادمة التي أرسلها المكوجى؟.. عموما سأسأل المكوجي، وإذا لم يكن هو من أرسل الخادمة سأسأل جارتي ثم والدتي عندما أذهب لزيارتها.

مرت عدة أيام أحضرت لوالدتي تأشيرة العمرة هي وصديقتها وسافرت إلى مكة وهي راضية عني لما أوفيت من دين وجعلتها تصحب صديقها معها لتؤنس غربتها، ونسيت أن أسألها عن الخادم.

بعد ثلاثة أيام من سفرهما، اتصلت هاتفيا بوالدتي فردت عليّ وهي فرحة وسعيدة بسماع صوتي وشعرت بدفء صوتها وحنانها ثم سألتنى:

هل حضر عم سليمان؟.. أعطيته المفتاح ووعد بالذهاب أربع ساعات كل يوم وسيتقاضي مرتب صغير أول كل شهر فاترك له المرتب على ترابيزة السفرة، ربما لا يمكنك رؤيته لتأخرك في العودة من العمل دائما.

قلت لها: سأفعل يا أمي.. لقد وفرت عليّ سؤال المكوجي وجارتي لمعرفة من يقوم بخدمتى.

ردت أمي: إنه رجل ياولدي وأنت شاب أعزب فهو خير لك من الجنس الآخر لتظل محترما وسط جيرانك.

وودعت أمي بحرارة وطلبت منها أن تدعو لي فى صلاتها وانتهت المكالمة.

* * *

عادت الحياة إلى طبيعتها كما كانت، وكلما رجعت للبيت بعد عمل شاق أطعم قطتي وأرتب لها مكان نومها وأجلس أمامها نأكل وأشكي لها أحوالي وهي تنظر لي بعينيها الجميلتين البراقتين وتهز رأسها وتتمطي فى حيوية بالغة.

أحببت فيها هذه الحركات النشيطة وأحيانا أناديها بذات العينين الماسيتين الجميلتين... إلى أن جاء يوم اجتماع مجلس إدارة الشركة التي أعمل بها، وكنت أحضر مثل هذا الاجتماع لطبيعة عملي في إدارة الاقتصاد التجاري للشركة.

وخلال الاجتماع كلفني مجلس الإدارة بعمل كبير أكبر من خبراتي بكثير، يتطلب أدائه مجموعة من المتخصصين المحترفين.

كان هذا العمل يتلخص فى إجراء حصر نهائي لجميع المصروفات والأرباح التي يجب أن تدخل إلى خزينة الشركة من هذا المشروع العملاق.. وأقل مدة لإنهاء هذا العمل هي ستة أشهر للدراسة وإخراج الصورة النهائية بشكل متقن. وكلفني رئيس مجلس الإدارة بالمسئولية كاملة عن المشروع وقال:

اطلب المجموعة التي تحتاجها بعد دراسة الموضوع بأكمله وعليك التنفيذ في أسرع وقت.

ولأول مرة أعترض محتجا بأنه لا يمكن أن ينجز مثل هذا العمل في هذه المدة القصيرة.

والغريب أن جميع أعضاء مجلس الإدارة كانوا ينظرون لي مبتسمين وقائلين: أنت لهذا العمل وستوفق فيه بإذن الله، استعن بالله.

تركت قاعة الاجتماعات ثم ذهبت إلى مكتبي وبدأت أفتح الرسومات وأنظر للأوراق الهائلة الحجم وأنا شارد الذهن، داعيا من قلبي أن يوفقني الله لأبدأ في عمل الهيكل الرئيسي لاقتصاديات المشروع حسب الرسومات والبيانات المقدمة لي.

وأصبحت أسهر كل ليلة بالمكتب محاولا بكل جهدي أن أكون عند حسن ظن الجميع، إلى أن عدت يوما للمنزل وكنت مرهقا وكالعادة وجدت البيت نظيفا والطعام على ترابيزة السفرة والعجيب أنه كان دافئا وكأنه معد منذ دقائق..

قلت فى نفسي: ربما غير عم سليمان موعد حضوره للعمل أو يريد مقابلتي من أجل راتبه. عموما سأتركه له غدا على الترابيزة وأشكره بكلمتين على الظرف الذى سأضع به الراتب.

جلست أتناول العشاء وقفزت تشيكي على الفور إلى جواري، فقدمت لها قطعة لحم كبيرة فى طبقها ووضعت لها فنجان من الشوربة الدافئة وجلسنا نتناول الطعام..

وكالعادة أخذت أقص عليها موضوع دراسة الجدوى للمشروع الضخم الذي سيتكلف ملايين، ونجاحي فيه يعني أن يصبح لي شأن عظيم بين رجال الأعمال كما يمكن أن أصبح واحدا من الأغنياء وأصحاب الكلمة.

وأضفت قائلا: لو نجحت فى إنهاء هذا العمل سأنتقل من حياتي هذه الى حياة أفضل، وسأشتري شقة على النيل تكون واسعة وبها حجرات كثيرة وفرش جميل وأدوات كهربائية حديثة، وسأشتري لك طبق كبير مبطن بستان أبيض وله فيونكة حمراء جميلة يكون سريرك تنامي فيه قريرة العين، وسأهتم أيضا بإيجاد سكن بمنطقة دافئة لتقضي بها أمى فصل الشتاء هي ومن تحب من صديقاتها فهي كل ما لي فى الدنيا. وانتهت أحلامى بانتهاء طبق الأكل الخاص بي.

وأثناء حديثي مع قطتي كانت تنظر لي ثم تنظر في طبق الطعام وكأنها تفهمني وتهز رأسها وجسمها في حركات انسيابية جميلة، إنها فعلا أصبحت موفورة الصحة.

بعد ذلك ذهبت إلى فراشي مرتاحا لهذه الأمنيات التي أتمنى أن تتحقق بنجاح عملي، ونمت نوما عميقا حتى الصباح.

* * *

بدأت يومي كالمعتاد ثم ذهبت الى مكتبي وجهزت ديسكات الكمبيوتر، وجاء الساعي ووضع فنجان القهوة بجواري على المكتب دون أن ينبس

بكلمة، فقد وجدني مشغول البال أركز في أوراق المشروع التي أمامي لأكتب من الجزء الذي انتهيت إليه بالأمس.

وفوجئت بما جعلني أتسمر في مكاني وسال العرق من جبيني وارتعشت بقوة هزت كل كياني ونهضت في الحال من على المكتب وكأن ثعبان لدغني..

يا إلهي ما هذا؟! من فتح لوحات الرسم الخاصة بالمشروع؟ من أتم العمل؟ من فك الرموز الحسابية المعقدة الصعبة؟

عدت أدراجي بعدما تمالكت نفسي وجلست أستجمع بعض قوتي وضغطت على أعصابي حتى لا تفلت مني صرخة وبدأت أقرأ وأقرأ وأجول بنظري في الرسوم العظيمة التي تم تنفيذها.

تم الانتهاء من العمل وإخراجه بشكل رائع واقتصادياته مذهلة ونجاحه مضمون وأرباحه باهرة..

من قام بهذا؟ من أعطى لنفسه حق دخول المكتب وتشغيل الكومبيوتر واستخدام الديسكات، وكيف عرف الشفرة المستخدمة؟ من؟ من؟

جلست مذهولا لأكثر من ساعة ثم جمعت جميع الأوراق الهامة بالمشروع العملاق وتكتمت الأمر لأدرسه مع نفسي لأني لو قدمته الآن إلى صاحب الشركة ربما يصاب بالذهول لأن دراسة المشروع بدأت منذ أيام فقط، وقد طلبت مهلة ستة أشهر لإنهائه كما طلبت مجموعة من المساعدين.

ماذا أقول وأنا من جادلت قائلا إنه ليس في الإمكان إنهاء المشروع قبل ستة أشهر.

مكثت لمدة شهر كامل متكتما على الموضوع ثم أخذت الأوراق وذهبت إلى رؤسائي وعرضت عليهم اللوحات والحسابات والتقديرات وكل التفاصيل. وفوجئ الجميع وأصابهم الذهول ونظر بعضهم إلى بعض والفرحة تملأ عيونهم، وأخذوا يقبلوني ويشدوا على يدى لهذا الإنجاز الضخم والسعادة تملأ قلوبهم وأنا الآخر أصبحت فرحا مثلهم.

والعجيب أن أحدا منهم لم يسألني من قام بمساعدتي.. كان كل همهم ينحصر فيما تم إنجازه على الورق وأن التنفيذ سوف يبدأ.

إنه نجاح عظيم لي، وتحققت كل أحلامي وذاع صيتي بين أصحاب الأعمال وانهالت علي العقود وأصبحت من رجال الاقتصاد المعروفين المحترمين في وقت قصير.

لقد وهبني الله المال الذى حرمت منه، ولأول مرة قبلت قطتي بين أذنيها واشتريت لها علبة شيكولاتة من التي تحبها، ثم جلست أطعمها بيدي وأحكي لها عن النجاح الذي حققته. واشتريت الشقة التي حلمت بها كثيرا وفرشتها بأجمل المفروشات وطلبت من أمي الحضور لقضاء وقتا ممتعا معي.

فقالت سأحضر في الصيف لأتمتع بالجو الجاف حتي نهاية شهور الشتاء، وباركت أمي خطواتي ونجاحي وتركت مبلغ كبير لها ولصديقتها وعم سليمان الخادم الذى لم أره حتى الآن والذى طوقنى بجميله ولم يجعلني أحتاج لأي شيء في الأمور المنزلية. ثم توضأت وصليت وطلبت من الله أن يكشف لي سر هذا الموضوع الذي أعياني طول التفكير فيه.

وكنت اسأل نفسي دائماً: هل بي قوة خفية؟ هل عندي انفصام بالشخصية؟ هل يخدمني أحد في مسائل حياتي ويخفي نفسه عني؟ وحتى لو كان كذلك كيف له أن يعلم بالرموز الحسابية وشفرة الكومبيوتر؟ وكيف هزمت اللصوص، ولماذا خر الرجل صريعا فى حالة إعياء شديد، وكيف انتصرت على جاري بدون حتى أن يحاول مقاومتي بمجرد أن نظرت في عينيه. وأيضا من سدد تكاليف عملية والدتي.. وما الذي يحدث لي؟

دخلت السرير في حالة إعياء شديد من كثرة التفكير فغلبني النعاس ونمت نوما عميقا.

* * *

في صباح اليوم التالي قرأت في أحد المواقع الإلكترونية عن بيع قطع أراضي زراعية بمساحات كبيرة تقع في الناحية الشرقية من البلد الذي ولدت به والتي أحن لها ولي فيها ذكريات جميلة. وعلى الفور أخذت التليفون وأجريت مكالمة عاجلة لوالدتي في بيت صديقتها بمنطقة حلوان وأبلغتها عن الإعلان ورجوتها أن توافق على شراء قطعة من هذه الأراضي لأنها أمنيتي منذ زمن.

قالت أمي في دهشة : لماذا يا بني؟

قلت لها: أريد أن يكون لنا مزرعة وبيت في بلدتنا نأوي إليه عند الحاجة، وإذا وافقتي سنسافر سويا لتختاري بنفسك القطعة المناسبة.

قالت أمي: ما دمت تري في هذا صالحا فاذهب على بركة الله، أما أنا فأعتذر عن الذهاب معك لأن صديقتي منذ أن حضرنا من العمرة وهي تشعر بألم في مفصل الركبة، ويعز علي أن أتركها وحيدة لأنها لم تتركني أبدا وحيدة.

سألت والدتي: وكيف هي الآن؟

وجاءني صوت صديقة والدتي بنفسها: الحمد لله الآن في أحسن حال ما دمت سمعت صوتك. اطمئن واحضر لنا سريعا وسيسدد الله خطاك.

أنهيت المكالمة واطمأن قلبى على أن والدتى وصديقتها أعجبتهما فكرة شراء قطعة الأرض المعلن عنها.. فسافرت الى بلدتي وزرت بعض أقاربنا الذين قابلوني بترحاب وسعادة بالغة، وفوجئت بأن الجميع يتابعون أخباري ونجاحي بل ويتباهون بصلة القرابة التي بيني وبينهم.

وبعد تناولي الإفطار معهم، جاء ابن العمدة يستأذن قبولي دعوة والده على الغداء بالدوار الكبير، فتعجبت في نفسي وأنا أقول:

يالها من دنيا.. العمدة بنفسه يدعوني على الغداء ولم أكن أجرؤ حتى أن أمر أمام بيته.

وافقت على تلبية دعوة العمدة. وفعلا ذهبت مع أحد الأقارب إلى الدوار، وقابلني العمدة بحفاوة كبيرة، وبعد الأحاديث والسمر والترحاب، انتقلنا إلى مائدة بها ما لذ وطاب من الطيور المشوية وطواجن الأرز المعمر والفاكهة.

وبعد ما فرغنا من هذه الوجبة الدسمة دخلت علينا زوجة العمدة وابنتها وخلفهما أحد الخدم يحمل لنا الشاي والمكسرات، فقمت من مجلسي وقدمت التحية للسيدة وابنتها..

كانت الابنة جميلة جدا خاصة وهي ترتدى الملابس الريفية الفضفاضة وغطاء الرأس الذى يزيد من جاذبيتها ووقارها، وقدم العمدة زوجته وابنته اليّ ثم قال:

هذه «شدوه» أصغر بناتي متعلمة ومثقفة وست بيت ماهرة مثل أمها تماما..

نظرت في عيني «شدوه» وفوجئت بأنها تملك عينان غاية في الروعة.. يا الهى إن عيناها خضراء تشبه عين قطتي تشيكي مع اختلاف أن عين قطتي لها عمق خاص يأخذك إلى أبعد ما تتصور، كأنك تحلم وتسبح في جمال الدنيا بأسرها وشاعريتها وطبيعتها الخلابة كما لو كنت تعيش في قصص من ألف ليلة وليلة...

أخرجني من تأملاتي صوت العمدة وهو يرحب بي من آن لآخر وكأني ابن له أو صديق حميم يعرفه منذ زمن وهذا جعلني آخذ حذري من هذه الحفاوة، ربما يريد العمدة شيئا ما يحتاجه مني وأنا في غفلة عما يدور برأسه.

سألت نفسي: ماذا يريد مني هذا الرجل؟ وظيفة مثلا لأحد أقاربه أو مشاركتي في بعض مشروعاته خصوصا وأنه سمع عني وعن مركزي

المالي ومنصبى المرموق!! أم يريدني زوجا لابنته «شدوه»، هذه الهيفاء الجميلة..

وفي الحال تنحيت جانبا لأقف مواجها للعمدة واستأذنه في الانصراف لأني على موعد مع بعض العملاء وشكرته على حسن ضيافته وحفاوته، ودعوته لزيارتى فى المدينة هو وعائلته، فهلل فرحا بهذه الدعوة وكأنه أرادها منذ زمن. وانتهت المقابلة دون أن أرتبط مع العمدة بشيء إلا من زيارته لي..

* * *

صباح اليوم التالى من حضوري لقريتي ذهبت حسب الإعلان واشتريت الأرض التي اشتاقت لها نفسي منذ أمد. وعدت أدراجى إلى منزل صديقة والدتي وأخبرتها بكل ما حدث من أول زيارة العمدة حتى شراء قطعة الأرض.

فرحت والدتي خاصة عندما علمت أن قطعة الأرض ستكون مزرعة رائعة بإذن الله. رجعت لمنزلي وبدأت في البحث عن قطتي تشيكى فوجدتها تقف على كرسي بجوار مائدة الطعام.

نظرت تشيكي لي وكأنها تعاتبني لتأخري ليلتان تاركا إياها وحيدة، وملست على شعرها ثم اقتربت منها وهمست بصوت هادئ:

اقبلي اعتذاري أيتها الحبيبة.. فسمعت موائها المتكرر كأنها سامحتني وقبلت اعتذاري.

وكعادتي دائما جهزت طعامها أولا ثم طعامي وجلسنا نأكل فى هدوء، وقصصت على تشيكي كل ما حدث لي خلال اليومين وما دار برأسي بخصوص ابنة العمدة «شدوه»، وعلى شكي فى محاولة العمدة أن يزوجني إياها. ولكني أيضا لم أعرف لماذا خفت من التفكير في الزواج عموماً.. خاصة وإن كانت الزوجة هي ابنة هذا العمدة الذي كنت أرتعب خوفا منه وأنا صغير.

وعندما نظرت الى قطتي وجدتها دامعة العينان فسألتها بلهفة:

تشيكي ما بك هل أنت متوعكة أو شيئا ما يؤلم عيناك الجميلتان؟..

تركتني القطة وقفزت متباعدة عني حتى وصلت إلى سريرها ذلك الطبق المبطن بالساتان ذو الشريط الأحمر الخاص بها وتمددت ونامت في هدوء.

وابتسمت وأنا أقول لها: الهذا الحد تريدين النوم؟ أكنت متيقظة طوال الليلتين اللتين لم أكن فيهما معك.. سبحان الله إنها تفهم الأمور كما لو كانت إنسان مثلنا.

* * *

في صباح اليوم التالي ذهبت لعملي، وأثناء جلوسي بمكتبي أتصفح بعض الأوراق الهامة دخل صديقي الحميم رؤوف وطلب لنفسه فنجان قهوة وبدأ حديثه معي قائلا:

أين كنت أيها الكسول يومان إجازة دفعة واحدة.. ما الأمر؟.. قصة حب أم مشروع عمل؟

قهقهت بسرور قائلاً: أنا أحب!! حاشا لله..

قال رؤوف: ولم لا؟ أراهب أنت أم لا تملك قلب مثلنا، منذ عرفتك لم أجدك أبدا تتكلم عن الجنس الآخر.. ما الخبر أيها الزاهد فى الدنيا.

قلت له: لا شيء يا رؤوف كل ما في الأمر أنني طوال هذه المدة وأنا أسابق الزمن من أجل تحسين مركزي وهذا الموضوع أخذ مني وقتا طويلا. فنسيت أن أفكر في نبض القلب والحب.. فالوقت كالسيف يا صديقي إن لم تقطعه قطعك..

وأكملت حديثي قائلا: سأطلعك على موضوع عدم وجودي يومان.. أولاً لا يوجد نساء ولا حب ولا شيء من هذا. الحكاية أني قرأت إعلانا عن بيع أراضي ببلدتي في الريف فذهبت واشتريتخت وكانت معجزة لأن هذه الأراضي سعرها ممتاز والناس هناك يتهافتوا عليها مما سبب زحاما هائلا من البشر، لكني وفقت والحمد لله وأنا الآن من أصحاب الأملاك..

وفي الحال هب رؤوف واقفا ثم قال: يالك من وغد لماذا لم تبلغني بهذا الموضوع؟ فأنا أريد شراء قطعة أرض ويا حبذا لو كانت بجوار أرضك لنعمل سويا على رعايتها وتكون فاتحة خير لنا..

قلت له: نحن فيها سأذهب معك متى تريد ونشتري لك قطعة وسأعمل جهدي عن طريق عمدة بلدي فهو الآن صديقي الحميم وسأطلب منه أن يتوسط لنا وتكون قطعة الأرض التى ستشتريها بجوار أرضي.

وفرح رؤوف وشد على يدي وقال: إذا موعدنا غدا إن شاء الله، سأزورك في منزلك بعد الظهر ونتناول الغداء سويا وأبيت عندك على أن نسافر عند الفجر إلى قريتكم لننهي هذا الموضوع ويكون لنا وقت بعدها للنزهة والراحة..

قلت له: لا وقت للنزهة سنعود بعد الشراء مباشرة حتى لا أترك تشيكي قطتتي بمفردها لأنها غضبت مني المرة الماضية.

قهقه رؤوف وأخذ يضرب كفاً بكف وقال لي: أتربط حياتك بحياة قطة؟.. ماذا لو كانت ابنتك أو زوجتك فما العمل إذا؟

واستطرد صديقي قائلا: أنا لو مكانك لألقيت بها فى الشارع فورا لأن جميع القطط خائنة ولصة والخيانة تسرى فى دمائها.

ولم أتركه يكمل حديثه البغيض عن قطتي وانفعلت بسرعة وصرخت فيه ليكف عن هذا الحديث وإلا خسرني للأبد، ثم تركته وخرجت من باب المكتب الى الشارع وأنا في حالة غضب.

أخذت سيارتي وقدتها بسرعة الى بيتي، وأثناء الطريق أخذت أفكر في حديث رؤوف الممل الذى أزعجنى. فتحت باب الشقة ووجدت تشيكي تجلس وراءه، وبمجرد رؤيتي قفزت الى جواري وسارت بجانبي حتى جلست على الأريكة وتنفست الصعداء لأخرج من صدري كم الغضب الذي لا أعلم لماذا انتابني وبكل هذا القدر.

والتقت عيناي بعيني تشيكي وخيل اليّ أنها تبتسم لي ومدت يدها ووضعتها فوق يدي!! فشعرت براحة كبيرة وانطفأ وهج غضبى وهدأت نفسى لوجودها بجوارى.

وكعادتي بدأت أتحدث معها قائلا أتعلمي يا تشيكي لقد آلمني رؤوف بسببك اليوم عندما قاطلب مني أن أطردك من حياتي وأخلص منك فما أنت سوى قطة والقطط كلها خائنة، وشعرت وقتها أن الدنيا تلف بي لتخيلي كيف تكون حياتى بدونك.. أنت لا تعلمي قدر الحب الذى أكنه لك يا تشيكي فأنا أتفاءل بك ولا أتصور أبدا أن أدخل البيت ولا أجدك.

وربت على ظهرها وملست على أذنيها ثم أخرجت من جيب سترتي قطعة شيكولاتة ووضعتها بفمها كنوع من الاعتذار عما بدر من صديقى، فالتهمتها تشيكي وهى تموء من آن لآخر وتهز ذيلها وكأنها قبلت هذا الاعتذار.

* * *

في مساء أحد الأيام سمعت جرس الباب يدق وذهبت لأرى من الطارق فوجدت رؤوف زميلي يحمل لفة كبيرة ويقف بالباب مبتسما ثم قال في هدوء وبمداعبة:

أيقبل سيدي الكونت اعتذاري؟

فرحبت به بسرعة ثم احتضنته وأدخلته الشقة، وعندما دخل صفر بفمه صفيرا عاليا يدل على انبهاره بالشقة ونظافتها وأناقة مفروشاتها وقال:

إش إش ما كل هذا؟ اللهم لا حسد..

قلت له: أهلا بك يا صديقي..

جلس رؤوف أمامي بعدما وضع اللفة التي كانت معه ثم قال:

أتيت لأعتذر بنفسي لقطتك الحبيبة، فما كنت أعلم أنها عزيزة عليك لدرجة أن تغضب كل هذا الغضب، فما رأيك وأين هي؟

شعرت أنه يتهكم عليّ ويستهزئ بقطتي لكني ناديت بسرعة:

تشيكي تشيكي..

وجاءتني على عجل ووقفت أمام صديقي وهي تنظر له دون حراك.. وبسرعة جلس رؤوف على ركبتيه وقال:

أهلا تشيكي سامحيني، لو كنت أعلم أنك بكل هذا الجمال ما لفظت كلمة ضدك.

وعندما هم بوضع يده فوق شعرها جرت من أمامه بسرعة وكأنها ترفض أن يلمسها أحد..

قهقه صديقي وقال:

أتيتك بأكلة كباب ونيفة وطرب ومجموعة شهية من السلطات، لأنى خفت أن أبيت بغير عشاء خاصة وأنك كنت غاضب مني.

قلت له: معاذ الله، وعموما أنا متشوق لهذه الأكلة.

جلسنا نتناول العشاء ونتحدث في أمور كثيرة بخصوص العمل وقطعة الأرض التي يريد شرائها.. ثم تناولنا الشاي وتصفحنا بعض المجلات،

وأخيرا طلب منى صديقي أن نلعب دور شطرنج وهو يتحداني بأنه سيغلبني، فقلت له:

لك هذا ولو أني لا أجيد هذه اللعبة لكني قبلت هذا التحدي إكراما لضيفي.. وضحكنا سويا وبدأنا اللعب.

ظل صديقي يناور ويحاور ويضعني في مآزق وأنا أحاول الخروج منها، وبدأ صوته يعلو وهو يقلل من شأني تارة ويستهزئ بي تارة أخرى لعدم إجادتي اللعبة وتأكدت أنه سيكسب سيكسب لا محالة..

وفجأة سمعت مواء تشيكي فتذكرت أن الساعة قاربت منتصف الليل ولم أضع لها وجبة العشاء، فاستأذنت صديقي وذهبت للمطبخ ووضعت الحليب مع بعض الجبن في أطباقها، وربت على رأسها ثم تركتها لأكمل اللعبة التى أنهكت تفكيري.. وبعد ثوان قليلة وجدتني أقول لصديقي:

كش ملك مات.

وصرخ صديقي: غير معقول كيف!! إنها أول مرة يهزمني أحد.. الدور كان لي بالتأكيد.

قلت لنفسي: ربما رؤوف فعل هذا وجعلني أكسبه ليسعدني. عموما مرت الأمسية جميلة بما فيها من أحداث، وتمنيت أن يعيش معى رؤوف للأبد فهو بالنسبة لي أخ كريم وصديق حميم.

ذهبت لحجرتي لأنام، وفجأة سمعت جرس التليفون فنظرت في ساعة يدي ووجدتها الثانية بعد منتصف الليل وتلاحقت ضربات قلبي خوفا أن أسمع خبرا سيئا أو تكون أمي مريضة..

أسرعت وأمسكت سماعة الهاتف في توتر.. ويالدهشتي إنها شقيقتي الصغرى التي سافرت منذ زمن بعيد مع زوجها وباقي أخواتي البنات.

وتبدل الحال بسرعة، فمن قلق وخوف إلى فرحة وسعادة لسماع صوت أختي التي أكن لها حبا كبيرا وكنت افتقدتها هي وباقي أخواتي لغيابهن سنوات عديدة. قالت أختي:

سنعود جميعا الأسبوع القادم لأرض الوطن فقد أنهينا العقد ولن نفترق بعد ذلك.. وأعطتني أختي رقم الرحلة وموعد الوصول وأنهت المكالمة، وفي الحال أبلغت والدتي بهذه المكالمة وهذا الخبر السعيد وهو عودة بناتها مع أحفادها.

كانت السعادة واضحة من صوت أمي أثناء المحادثة قالت لي:

أريدك فورا يا بني لنرتب لهذا اللقاء.

سألت أمي بدعابة إن حضورهن سيكون الساعة الثانية بعد الظهر فما الذي ستطهيه لهن يا حبيبتي؟

ردت أمي وهي تضحك: طبعا ملوخية بالأرانب فهي الأكلة التي يعشقنها جميعا..

بعد ذلك وعدت أمي بالزيارة لنرتب لهذا اللقاء العائلي، إن أغلى شيء في الحياة هو وجود عائلة حولك توليك عنايتها ورعايتها ودفئها.

ومن فرحتي بهذا الخبر جافاني النوم فجلست بالشرفة المطلة على الشارع العمومي ورجعت بخيالي إلى سنوات بعيدة.. وتذكرت أبي رحمه الله

وأخواتي البنات ولعبنا وفرحنا ودموعنا. كانت أيام كلها شقاوة وفرح ومرح وحب.

وأثناء جلوسي بالشرفة هطلت حبات من المطر وداعبت بشقاوة وريقات الشجر وأحدثت صوتاً أحببته كثيرا خاصة في فصل الخريف الذي يجمع بين البرودة والدفء وصفاء الجو وظهور السحاب بلونه الأبيض الشفاف الذي ينتشر في الأفق وأخذت أتخيل كل سحابة على حدة..

بعضها يشبه وجوها لأشخاص جميلة وبعضها يشبه أشكالا هندسية.. وبعضها يشبه حيوانات أليفة.. السماء الصافية تبعث في النفس الهدوء والسكينة والرضا.

وأنا أسبح بمخيلتي وأطفو بروحى في الأفق البعيد.. رأيت شيئا غريبا شبيه بالسحاب الذي كنت أتأمله منذ قليل.. شيء صغير كسحابة قريبة جداً تقفز فوق أسطح المنازل القريبة.. تنتقل بسرعة فائقة من منزل إلى عمارة ثم تقفز فوق أعمدة النور التي تمتد بطول الشارع وأحيانا تتوقف ثم تدور حول نفسها.

وتخيلت كعادتي أنها فتاة جميلة.. كراقصة باليه في رقصة عنيفة تعبر فيها عن كينونتها..

وبسرعة دخلت إلى حجرتي وأخذت المنظار المقرب وحاولت أن أتبين ما الذى يحدث فوق هذه الأسطح، اقتربت الصورة نوعا ما لكن هذا الشيء كان مشوشا.

تابعت الحركة في هدوء شديد.. فعلا إنها كأنثى ترقص في انسيابية ونعومة فائقة.. تنثني وتنفرد ثم تنام على الأرض وتقف وتقفز يمينا وشمالا. وترفع رأسها وكأنها تبتهل لله سبحانه.

يا الهي ماذا يحدث هناك؟

جلست أفكر ما هو هذا الكائن!! كأني أرى إنسانا حزينا ينفس عن غضب يعتريه.

ومن كثرة التركيز وأنا جالس أحذر وأفذر لم أصل الى نتيجة أقنع بها نفسي. آثرت أن أبتعد عن الشرفة ودخلت لأنام.

* * *

في صباح اليوم التالي استيقظت من نومي وأنا مهموم وكأن شيئا غير سعيد سيحدث.. أخذت طريقي للمطبخ لأعد الفطور، فوجدت قطتي تشيكي ترقد فى طبقها الخاص، فركعت على ركبتي وملست على شعرها في حنو بالغ وسألتها:

أين كنت يا حبيبتي.. بحثت عنك في كل مكان بالمنزل ولم أجدك، أكنت منزوية بعيدا عن رؤوف؟ أما زلتي غاضبة.. لا لا يمكن أن تكونى غاضبة لأنى أعرفك طيبة ومتسامحة. هيا لتتناولي فطورك سأجهزه لك في الحال ثم أوقظ رؤوف لنذهب لشراء الأرض التى يريدها.. إنك فال سعدي وتميمة حظي فأنا أردد دائما.. منذ رأيتك وكل أعمالي كللت بالنجاح، أحبك كثيرا ولا غنى لي عنك.

وتركتها وأخذت أصيح مناديا رؤوف لأوقظه مداعبا. تارة أقذفه بالوسائد وتارة ألكمه في كتفيه وهو يبادلني ذلك بسعادة.

بعد الفطور مباشرة سافرنا الى قريتي واشترينا قطعة الأرض التي رغب فيها صديقي، وكان لتدخل العمدة ووساطته تأثير عظيم وبفضله نجحنا في امتلاك قطعة الأرض الملاصقة لأرضي تماما.

كانت رحلة العودة الى منزلي سهلة وافترقنا أنا ورؤوف على موعد لقاء جديد في الشركة التي نعمل بها سويا.

* * *

عدت لمنزلي وبمجرد وصولي لباب الشقة انتابتني نفس الانقباضة التي شعرت بها سابقا، كأني مخنوق من مكان مزدحم ملئ بالبشر.

فتحت الباب ثم دخلت للصالة وفوجئت برعشة تسري في جسدي، ورغم برودة الجو إلا أن العرق كان يسيل من جبيني..

خطوت مسرعا نحو النافذة وفتحتها عن آخرها لأتنفس هواء منعشا ربما يريح صدري.. وهدأت قليلا وأخذت بعض رشفات من الماء ثم ذهبت لأتجول في الشقة باحثا عن قطتي أنادي عليها تارة وأبسبس لها تارة أخرى. ولم أجد لها أثرا في كل أركان الشقة..

قلت في نفسي: ماذا حدث لهذه القطة، أصبحت تختفي كثيرا وشعرت بالضيق لعدم تواجدها- ربما غضبت مني لغيابي عنها في الفترة الأخيرة

ففرت إلى الشارع أو ربما لا تريد البقاء معي الآن فذهبت تبحث عن مأوى آخر.

وبسرعة رفضت هذا الظن محتجا على تساؤلاتي بصوت مرتفع: لا.. هذا ليس طبع قطتي لأنها طيبة وإن شاء الله ستعود.

وجاء يوم آخر من أيام الخريف وفرغت من عملي عند الساعة التاسعة مساء لتراكمه وغيابي عدة أيام بسبب السفر. وعدت لمنزلي وسمعت صوت بكاء، صوت نسائي جميل، تسللت للطرقة لأسترق السمع حتى وصلت لنهايتها ثم فتحت الباب الذي يأتي منه الصوت فلم أجد أحدا. غير أن شباك الغرفة كان مفتوحا والستائر تتحرك بخفة من الهواء.

ولم أجد سوى تشيكي قطتي الجميلة وبسرعة نسيت الصوت الذي سمعته وحملت القطة بين يداي وأنا أربت على ظهرها قائلا لها:

ماذا حدث؟.. هل قفل الباب عليك يا صغيرتي لا تغضبي مني. نسيتك في غضون مشاكلي، فقد توسلت لله سبحانه أن يحل لي بعض الألغاز وهذا ما جعلني أتركك لفترة سامحيني يا تشيكي.

قدمت لها كوبا من اللبن، لكن عندما جلست أمامها لأسقيها إياه وجدت دموعا تسيل من عينيها على شعر رقبتها وشهقت تبكي!

كيف ولماذا؟

وفجأة تركتني القطة وهرعت الى آخر الحجرة وأخذت تموء بصوت عال وكأن بها ألم، ثم انطلق دخان كثيف يتصاعد بالحجرة وأخذت ترتعش

وترتعش واهتزت جدران الغرفة هزا مروعا وانطفأت أنوار المنزل جميعها وسمعت صفيرا للهواء كأنه يعوي.

وفي لمح البصر وجدت القطة تنسلخ عن جسدها ثم سمعت أصواتا تهلل: باسم الله.

ومن بين الأصوات صوت نسائي جميل هادئ وكلمة اهتز لها جسدى كله، كلمة: يا معين.

وبدأت الغرفة تتلألأ بأنوار طيفية بالغة الروعة كأنها انعكاسات بريق ماسي شديد الصفاء، ومن بين الدخان الكثيف والأضواء الباهرة رأيت شيئا يطول ويطول، ثم انشق الضباب عن أنثى جميلة سبحان الخالق.. الوجه الشعر القوام العينان، كل شيء فيها ينطق بالجمال.

هدأ الضباب وسكن الصوت وكأني في عالم آخر، لكنى بهت وانتابني خوف شديد وثلجت أطرافي وشعرت بالحمى تسري في جسدي ودقات قلبي تسرع وتسرع كأني جريت مشوارا طويلا.

جلست من شدة الخوف والرهبة مكتوف اليدين باكي العينين، وقلت بصوت فيه حشرجة:

من أنت بحق الله ومن أين أتيت؟

ابتسمت قائلة: أنا من أسميتني تشيكي.. قطتك التي أحببتها وأسميتها باسم طعامك.. أنا التى حنوت عليها وأخلصت لها وآويتها.

سألتها: ماذا تعنين؟ إني أراك إنسانة..

قالت بهدوء: أنا من أهل الجن، الجن المؤمن الطيب.

قلت بخوف شديد: إذاً أنا في خطر؟

فابتسمت ثم نفخت في وجهي كأنها تتنهد فشعرت بهواء رطب يسري في بدني، فهدأت روحي وأثلج صدري وسكن فؤادي ونظرت لها مستمعاً.

قالت: لا يا صديقي الحبيب، وهل يمكن أن أؤذيك وأنت الرجل الطيب ذو المبادئ السامية؟.. وجدتك بارا بوالدتك وساعدت قطة هزيلة مريضة فأعطيتها كل طعامك وجلست على الأرض راكعاً تمد يديك بالطعام لكي تخفف عنها الخوف وترضيها.. أبيت أن تختلس أموال الغير وأنت في أشد الظروف الصعبة.. ساعدت الجارة المسكينة عندما طلبت منك المساعدة.. أنت إنسان طيب فكيف لي أن أؤذيك وأنت الذي كنت تجلس بالساعات تتحدث اليّ وكأني إنسان مثلك، تشكي لي متاعبك وتقدم لي نصف أكلك في أوعية نظيفة، عاملتني برفق وحب وود.

قلت لها: أفصحي عن نفسك أرجوك من تكوني؟

قالت: أنا بنت سلطان الجان، نعيش تحت الأرض في جبال من الماس ومعظم كنوز الأرض التي سمعت عنها ملك لأبي وأنا وريثته الوحيدة متزوجة من بنى جنسى، زوجى طيب عطوف محب وهو ذراع أبي الأيمن وخادم عرشه الوفي.

أغضبته يوما وكنت متكبرة عليه دائما فشكاني لأبي السلطان فغضب أبي منى وصمم أن يعطيني درسا في العدل لأني الحاكمة للسلطنة من بعده،

فنفاني مطرودة من باطن الأرض إلى خارجها، وصورني في شكل دمية قبيحة من البلاستيك الردئ وأنا الأميرة صاحبة جبال الماس.

فعل هذا ليذل نفسي ويطهرها من الكبرياء والغطرسه، كانت العقوبة عبارة عن لعنة مركبة، فلو أخذ أحد دمية القطة المصنوعة من البلاستيك وعلقها في أي شيء تزداد مدة العقوبة، أما إذا ألقى الدمية أرضا وارتطمت بالأرض دون أن يلتفت إليها أو يبالى بها تزول عني اللعنة ويكون هذا درسا لي في عدم التكبر..

تأتى بعده مدة العقوبة الثانية وهي أن أتحول إلى قطة هزيلة جائعة خائفة لمدة حددها أبي على الصورة التي رأيتني عليها أول مرةً وبعد أن تنتهي المدة أعود إلى الوطن تحت الأرض التي جئت منها وقد تعلمت الدرس فمن يحكم بالعدل لا يجامل أحد ولو كان أقرب الناس اليه ما دام يستحق العقاب. وعلىّ ألا أتكبر على زوجي حتى ولو كنت بنت السلطان.

وها أنا اليوم أعود لشكلي الطبيعي موفورة الصحة راضية بحكم أبي متلهفة لرؤية أولادي وزوجي الحبيب بنفس صافية راضية عن أبي السلطان الحاكم العادل صاحب المبادئ المحبوب من كل أهل الجن الطيب المؤمن بالله.

وعندما سمعتني أبكى كانت ساعة العودة قد حانت ووجب أن أتركك يا أعز من قابلت في حياتي، يا من كنت نعم السجان الذى احتواني فى مرحلة نفيي من دنياي وقضيت أحلى أيامي معه، كأني كنت في مرحلة تعليمية أدرس فيها مخلوقات ما فوق الأرض.

لكن دعني أكمل لك باقى القصة..

عندما نظرت بوجهى وحدقت في عيناي أول يوم رأيتنى وأنا قطة أطلعتك على مملكتى وأنت بنفسك رأيت جبال الماس والشلالات وكرسي العرش وتاج المملكة، وعندما جلست أمامي تطعمني توسمت فيك الطيبة والنبل والولاء فأعطيتك بعضا من قوتي لتستعملها في الخير وإنصاف المظلوم وتساعدك في المرور من الأزمات الصعبة.

أنا التي نظفت بيتك وملابسك وأعددت لك طعامك فلم يحضر عم سليمان ولا خادمة المكوجي ولا جارتك وستعلم ذلك لو قابلت عم سليمان نفسه..

لقد رتبت لك كل شيء يخص حياتك عرفانا مني بجميلك واحتواءك لي. أنا التي أنجزت لك عملك وحسبت كل حساباتك وجعلت كل رجال الأعمال يفخرون بك لسرعة الإنجاز كما جعلت رؤسائك يصممون على أن تقوم به أنت بالذات حتى تنجح وتكبر في سوق العمل وتصبح من ذوي النفوذ فجعلت هذا العمل وهو مشروعك الأول ميثاقا تتعلم منه كيف تدار الأمور وركيزة لأى مشروع يدار بنجاح. وها أنت حققت الامتياز والمكاسب في كل ما صنعته يديك بدون مساعدة مني بعد ذلك.

أنا السيدة الثرية التي دفعت فاتورة المستشفى ووقعت بالأحرف (ت. م) ال «ت» أول حرف من تشيكي الاسم الذي سميتنى به.. وال «م» أول حرف من اسمي الحقيقي «ماسريان» ملكة الماس.

لقد هيأت لرجل الاستقبال في المستشفى أن يراني في صورة سيدة عربية ثرية عندما دفعت تكاليف المستشفى لوالدتك وأعطيته الظرف الذى يحتوي على المال ليعطيه لك.. وكان عندي من الطرق لأعطيك أموالا كثيرة، لكني فضلت هذه الطريقة حتى أقنعك بمصدر المال وتوافق على استلامه. ولو فعلت عكس ذلك ستأبى نفسك أن تأخذه وتدور بك الظنون وهذا ما أبعدتك عنه كل البعد لأجعل حياتك هادئة هانئه.

من يوم أتيت لعالمك وأنا بجوارك في كل تحركاتك أساعدك كما تساعد أنت الآخرين. وعندما اقتربت لحظة الوداع أوحيت لإخوتك بالعودة اليك وأوحيت لوالدتك لتعود هي الأخرى إليك حتى اطمئن أنك بين أناس يحبونك.

إن أقوى حب في الدنيا هو حب العائلة.. أردت أن أتركك وأنا مرتاحة الضمير وهذا لن يكون إلا بوجود أحبائك حولك..

أتذكر يوم أن كنت تجلس في الشرفة بعد المكالمة التليفونية من أختك، في تلك الليلة جافاك النوم، كان هذا يوم عودتك من السفر لقد كنت ملازمة لك طيلة الرحلة.. سهلت لصديقك رءوف كل الأمور لشراء أرضه وعدت معك وأنت لم تراني، وعندما أمسى الليل بهوائه الرطب المنعش ولعلمي أنه آن وقت الرحيل عنك، خرجت أتجول بالشوارع وأتسلق حوائط العمارات والمنازل للأسطح أدور فوق أعمدة الإضاءة.

ورأيتني أنت حينما كنت تجلس بالشرفة حينذاك وصفتني بأنى شبيهة بسحابة بيضاء صغيرة ترقص رقصة عنيفة.. فعلا كنت أرقص رقصة وداعي لعالمك، رقصتي فيها عنف ومرارة وألم لفراقك..

سمعتك وأنت تقول: آه لو كان بيدي لنظفت كل هذه الشوارع ورممت كل تلك المنازل وقمت بطلائها بأبدع الألوان لتصبح مظهرا جميلا لبلدى التي أكن لها كل الحب والوفاء، وسمعتك وأنت تتمنى أن تضاء كل أعمدة الإضاءة وتجدها هي الأخرى نظيفة تبعث الراحة والابتهاج في النفس.

إنك طيب القلب رقيق المشاعر.. كنت تفكر في أسرتك وتفكر فى غيابي عن البيت. وأين ذهبت وهل أنا كرهتك وفررت منك ولماذا؟ ثم يتحول تفكيرك دون قصد إلى بلدك التي تتمنى أن تراها في أحسن صورة.

والآن أريد أن أريك شيئا.. اذهب إلى النافذة والقي نظرة على الشوارع والمنازل وأعمدة الإضاءة التى حولك والتى تمنيت أن تقوم على صيانتها وإضاءتها جميعا لتنير الطريق لعامة البشر حتى تسعدهم وتطمئنهم.

* * *

نظرت من النافذة كما أمرتني، وفعلا وجدت كل شيء جميل ورائع كما تمنيت له أن يكون..

وبلهفة وفي عجلة عدت إليها فأكملت حديثها:

هذه هي قصتي يا صديقي الحبيب..

رفضت دوما أن أنام بجوارك وكنت تغضب مني عندما أقفز لأنام بجوار سريرك. لأني أحافظ على العهد الذي قطعته على نفسي بزواجي

ممن أحب والذي أخلص له لأبعد الحدود، كما أحافظ على كياني كأميرة لمملكة عظيمة حتى ولو كنت منفية عن بلدي في صورة قطة. كما أحترم سمعة أولادي فهم كثيرون.

والآن عندما سمعتني أبكي كانت ساعة الفراق قد حانت وزالت عني لعنة السلطان.. وسأعود لأهلي ومملكتي وعشيرتي.

كان بكائي من أجلك لأني أحببت فيك الرجولة والصفات الجميلة والطيبة طيلة فترة العقوبة.

الآن ياعزيزى، هديتك لي هي سريرى ذلك الطبق المبطن بالساتان الأبيض وفيونكته الحمراء الجميلة، إنه أغلى عندي من كنوز الدنيا ومن كنوز الأرض.

* * *

ترقرقت الدموع بعينيها الجميلتين ونظرت فيهما فوجدتهما حزينتان.

وتسمرت أمامها لأتعمق في تلك العينان فوجدت زينة وأعلام، زهور وأفراح، سعادة وزغاريد وطبول، شبابا ورجال وشيوخ تصفق مسرورة مستعدة لاستقبال أميرتهم الجميلة..

كان الكل سعيدا حتى الأطفال تعلو وجوههم البسمة. ووجدت نفسي أبكي بحرارة قائلا لها:

ماسريان.. تشيكي قطتي الحبيبة، أرجوكي لا تتركيني لا ترحلي عني..

قالت: يا عزيزي، أين مبادئك؟ هل أترك أولادي وزوجي ومملكتي وشعبي وأظل هنا؟ أعدك أن أكون دائما بجوارك دائما عندما تحتاج لي أو يصيبك شيء ستجدني في أي وقت تشتاق لي أو تريد نصيحة أو مشورة.

لكن... لا تعتمد على هذا كثيرا، أنت معك القوة والنجاح والإيمان بالمبادئ وحب الخير للجميع، بهذه الصفات لن تحتاج حتى للجن.

ماذا الآن، هل ستعطينى سريرى؟

قلت لها: ليتني كنت هذا الطبق الذى تسمينه سريرك حتى لا أفارقك أبدا.. إنه لك يا حبيبتي خذيه ونفسي راضية ما دمتي تريدين الاحتفاظ به.

قالت: أعرف أنك أعجبت بفتاة من الريف عندما ذهبت لزيارة أهلك وشراء أرضك بعد نجاحك وشهرتك، وأعرف أن عمدة البلد لمّح لك للزواج بابنته وعرض عليك أن ترشح نفسك نائبا عن القرية.

إذهب لبلدتك وقابل العمدة واطلب يد ابنته، تزوجها.. إنها إنسانة رائعة ستلد لك الذكور والإناث وسترعاك بأمانة..

هذه هديتي لك، وهى مجموعة صغيرة من الماس.. قدم إحداها هدية زواجك لعروسك. عش حياتك ودنياك، كوّن أسرة جميلة واعلم أنه كان بإمكاني إهدائك جبل من الماس لكن ما أهديتك من القوة والنجاح وسرعة إنجاز العمل يساوى ماس الدنيا كله.

كفاك عزوبية ووحدة ودعني أذهب عنك وأنا مطمئنة عليك راضية عن حياتك..

* * *

وجدت نفسي أبكي بصوت مرتفع، لقد أحببت مسريان أحببت كلامها وسياقه، أحببت صوتها ونعومته، أحببت صدقها ووفائها، إنها من جنس آخر لكن ما باليد حيلة لقد وقعت في غرامها بمجرد أن رأتها عيناي.

أشعر وكأني عشت معها عمري كله ولا أتصور أبدا أن أتركها أو تتخلي هي عني، لقد أحببتها وهي قطة هزيلة ضعيفة كانت جليستي وونيستي، وها أنا أراها أنثى رائعة بمعنى الكلمة جميلة في كل شيء شامخة مرفوعة الرأس، قوية صبورة عطوفة.

كيف أدعها ترحل عني؟ كل أفعالها التي قامت بها معي وكل المساعدات التي قدمتها لي زادت من احترامي لها وتعلقي بها. احترمت أباها السلطان لعدله وقوة تحملة لفراقها وهي أعز ما في الوجود بالنسبة له..

عرفت هي كل ما يدور في عقلي وردت على بسرعة قائلة: صعب، صعب الذى تريده. فأنت لك حياتك وعالمك ولي حياتي وعالمي وكل منا ميسر لما خلق له. فلو كنت غير متزوجة ربما كنت أفعل.. أما في ظروفي هذه فلا يصح لأني وريثة أبي والحاكمة من بعده، يحترمني شعبي وعشيرتي وأحب زوجي وأولادي.. لا أخفي عنك أنك أصبحت جزء من هذا الحب سأظل أرعاك وأحتويك، ومن أجل ذلك بكيت لأن العهد والواجب فوق كل الاعتبارات، ولذلك أبكيك..

صعب على وداعك. لقد كانت مدة عقوبتي ونفيي من أجمل فترات حياتي.. وسيرعاك الله بفضل ما فعلته معي، لقد قصرت على مدة عقوبتي وحرماني من عائلتي.

أرجوك اتركني أرحل في هدوء بدون أن أرى كل هذا الألم في نفسك حتى تساعدني على الوداع بصورة طبيعية. وابق على وفائك ورجولتك وشهامتك وتذكرني ولا تنساني.

* * *

وجدت نفسي أصرخ فيها بأعلى صوتي:

ماسريان حبيبتي كفاك ارحميني ما عدت أحتمل، الفراق يمزقني بل يحرقني.. ليتني ما رأيتك أو عرفت حقيقتك.

ليتك خرجتي من حياتي بدون أن أرى جمالك وحنانك وطيبتك وعرفانك بالجميل.

لقد أثرت في حياتي وأنت قطة ضعيفة هزيلة، فما بالك الآن.

وأجهشت بالبكاء وتقلصت أحشائي واهتز كياني كمن أصيب بأصعب الآلآم وتأوهت..

فأمسكت بيدي ووضعت يدها الأخرى على رأسي للحظات وكأنها سحرتني فأخرجتني من حالة الألم واليأس والبكاء.

قلت لها: لقد تعاملتي معي بكل الاحترام سامحيني غصب عني فأنا بشر.. ربي قادر أن يجعلني أحتمل هذا الفراق.

وفجأة امتلأ المكان بحاشية ماسريان، ألبسوها ملابس الأميرة وعلى رأسها التاج وأحاط بها فتيان أقوياء باسمى الوجوه ملامحهم طيبة. وتقدموا نحوها بوقار يقدمون لها الزهور والولاء.

جلست الأميرة الجميلة على كرسي عرشها وابتسمت لي قائلة:

أنا معك ولن أنساك..

امتلأ المكان بالزهور والرياحين ودقت طبول تخلع القلوب وسار موكب الأميرة الجميلة وانشقت أجزاء من الأرض غاص فيها كل الموجودين فرحين مهللين. ولمحت دموعها تسيل على وجنتيها الجميلتين وهي هادئة تنظر إليّ بكل حنان.

ذهبت قطتي حبيبتي، ذهبت أميرتي وهتفت بأعلى صوتي ودموعي تملأ وجهي:

وداعا ماسريان النقية، وداعا يا من أتيت من عالمك منفية وها أنت تعودين له رافعة الرأس أبيَّه، سأظل أحبك ما دمت حياً.

* * *

رحمني الله بسماع أذان الفجر، فذهبت مسرعا لأتوضأ وأصلي وأرتمي بين يدي الله ليخفف عني هذه اللحظات القاسية من الوداع.

وبكل الود والحب والاحترام انتهت قصتي مع «ماسريان»، عالم آخر خلقه الرحمن.

شيطان الجبل

أنا فتاة فى مقتبل العمر جميلة ممشوقة القوام سمراء البشرة سوداء العينان باسمة الوجه نشيطة فى عملى ، ذلك لشدة حبى لطبيعة هذا العمل.. فأنا أعمل فى وظيفة مرشدة سياحية ، أتقن عددا من اللغات وأعامل الأجانب وكأنهم عائلتى وهم أيضا يبادلونى نفس الشعور . أسرتى غنية تملك من الأطيان والمال الكثير. والدى تاجر كبير له اسم معروف فى سوق العمل.. يميل إلى الصداقات وخاصة صداقاته النسائية، الشيء الذى جعل والدتى تكره الحياة معه.

انفصل والداى عنا وعاش كل منهما حياته الخاصة يستمتع بها كما يحلو له. تنازلت والدتى لى عن الفيلا التى أعيش فيها مع أختى أجمل البنات إلا أنها للأسف معوقة ومنطوية على نفسها.. والفيلا تحتوى على ثلاث أدوار كلها تطل على الجبل.. مما يمكنك أن ترى السيارات التى تصعد الجبل أو تخرج منه ، كما ترى أيضا أجمل المناظر الطبيعية. كالسماء الصافية التى تتلألأ فيها النجوم خاصة فى المساء وكأنها حبات من الأحجار الكريمة البراقة. كما ترى العمارات والمنازل تنبعث منها أنواراً رائعة تضفى على النفس البهجة والسرور.. وبمدخل الفيلا حمام سباحة فخم أرضيته رخامية ومعظم أركانه محاطة بقنينات من الفخار اليدوى الصنع الذى أبدع الفنان المصرى العظيم فى صناعته.

كانت أمى تحرص على أن يكون فى كل قنينة مجموعة من الزهور الزاهية ذات الألوان الرائعة والتى يملأ عبيرها المكان ويدخل على النفس البهجة والحب الدائم للطبيعة الخلابة.

الأدوار العليا مخصصة لغرف النوم وهى مفروشة بأفخم الأثاث المحلى والمستورد غالى الثمن وخاصة حجرة نومى، فهى واسعة وبها تراس كبير تحتضنه هذه الطبيعة ، ويوجد بها أنتريه ومكتب خاص بى وحمام واسع مريح يحتوى على كل ما أحتاجه لتصفيف الشعر وعمل الساونا والمكياج.

وبالحجرة أيضا ملحق صغير به كل الأدوات الرياضية الخاصة بالرشاقة والتى أستعملها باستمرار.

أما الدور الأرضى فيتكون من استقبال الضيوف العاديين واستقبال الخاصة من علية القوم والعظماء من ذوى المناصب المرموقة الذين كانوا يحضرون للتشاور مع أبى فى أمور العمل.

أحببت هذه القاعة جداً وكلما أردت أن أكتب شيئا كرسالة أو فكرة أو الجلوس مع نفسى للتأمل تكون هذه القاعة ملاذى الوحيد..

أسفل هذا الدور يوجد البدروم الذى يضم المطبخ وحجرات الخدم وكل ما يلزم لهم..

تلك فيلتى أنا وأختى، وكان من ضمن ممتلكاتى سيارتى الجميلة الفاخرة التى أضفت لها مسجل ستيريو بسماعات مجسمة ومجموعة من أشرطة

الموسيقى الأجنبية والأغانى الصاخبة التى أعشق سماعها خاصة عندما أرفع صوت المسجل إلى أعلى درجة..

لاحظت أن كل من كان يسمع ذلك الصوت يهتز بشدة من الضجة الهائلة التى تصدر منه، لكن ما باليد حيلة، فهوايتى المفضلة هى سماع هذا النوع من الموسيقى التى تجعلنى أرقص وأهتز بشدة وأنا خلف عجلة القيادة أضرب بيدى عليها وكأنى أشارك الفرقة الموسيقية التى تعزفها.

كل هذا وأنا صاعدة للجبل عائدة إلى فيلتى فى الأوقات المتأخرة من الليل، كان هذا يشعرنى بعدم الخوف من ظلام الليل والسكون الذى يحيط بالمكان..

أحببت حياتى كثيرا وأحببت عملى ووالداى اللذان ما برحت أفكر فى أن يجمعنا البيت مرة أخرى لتكتمل سعادتى أنا وأختى، أما حياتى الخاصة فللأسف لم يدق قلبى لحبيب حتى الآن فلم أجد فتى أحلامى بعد، عموماً فأنا لست عجولة بطبعى.

ذات يوم وأنا عائدة من عملى متأخرة كعادتى وأنغام الموسيقى العالية تشغلنى عن أى شيء، وبينما أقود السيارة بسرعة وأنا شاردة مع اللحن، إذ بالسيارة تنحرف بشدة ناحية الشمال حتى باتت العجلتين الأماميتين كأنها تطير فى الهواء والعجلتين الخلفيتين غرزتا ثابتة فى الأرض وأى حركة منى ستسقط السيارة بالتأكيد.

كتمت أنفاسى وأمسكت بفرامل اليد وزاغت عيناى يمينا ويسارا وأسرعت ضربات قلبى وتقلص الهواء داخل صدرى وامتلكنى رعب عظيم، كما امتلأ قلبى خوفا وقلقاً وحيرة من المجهول.

وبسرعة البرق ظهر شاب كأنه طائر فى الهواء يجرى نحوى بأقصى بسرعة وفى لمح البصر جذب السيارة بقوة تساوى قوى أعظم حاملى الأثقال مع أنه- كما رأيته- كان شابا نحيل القوام.

أنقذنى هذا الشاب من سقوط محقق وهلاك مؤكد، وفى لمح البصر فتح الباب وشدنى خارج السيارة فما كان منى إلا أن لففت ذراعى حول رقبته ولفحت أنفاسه وجهى فشعرت بالدفء فى وقت هربت فيه كل دمائى وثلجت أطرافى وشعرت بنبض قلبى وقلبه متلاحمان.

حينها شعرت بجسده يرتجف وضمنى إليه ثم أجلسنى بعيدا عن السيارة على حجر ملقى بمطلع الجبل، ودلّك لى أطرافى وملس على شعرى وابتسمت له فتجاوب معى بابتسامة هادئة ثم قال:

الحمد لله على سلامتك..

قلت له: لن أنسى معروفك ما حييت، حضرت فى الوقت المناسب.

فقال: إنها الأقدار.. هيا أوصلك لفيلتك.

تعجبت كيف عرف أنى أسكن فيلا! لماذا لم يقل إلى بيتك أو عمارتك مثلاً..

قلت لنفسى: ربما لشدة خوفى جاءت كلمة فيلا على لسانى أمامه.

ما عدت أشعر إلا بشيء واحد وهو أن هذا الشاب الوسيم حرك كل شعورى بالحب.. نسيت بلمساته ودفء أنفاسه التى بعثت فى نفسى السعادة أنى كنت سأموت منذ دقائق فى هذا الحادث المروع الرهيب.

جلس منقذى خلف عجلة القيادة بعد أن تفحص السيارة وقال الحمد لله ليس بها شيء.

نظرت خلسة إليه.. لقد كان جميلا وسيما أنيقا يرتدى بدلة بيضاء ويضع منديلا أبيض، أبيض البشرة ناعم الأنامل دافئ الحديث، من ينظر إليه ينسى نفسه ويذوب فى كلماته..

ارتجف قلبى وشعرت بأنه ربما يكون فارس أحلامى الذى أنتظره منذ زمن، وتذكرت فى الحال كلمات جدتى..

فمنذ نعومة أظافرى فتحت لى أوراق الكوتشينة التى كانت هوايتها المفضلة، وقالت لى أنى سأقابل حبيب.. شاب هادئ وسيم وجميل، ثم سكتت ولمعت عيناها وترقرقت فيهما دمعة كبيرة ولم تكمل الحديث الذى عرفته من أوراق الكوتشينة.

قلت لها ما بك يا جدتى؟

ردت قائلة إن المستقبل بيد الله سبحانه وربتت على كتفى وضمت أوراقها ومن بعدها لم تفتح لى أوراق الكوتشينة أو لأحد آخر مطلقاً.

وتذكرت أيضاً أنى ذهبت إلى حجرتها بعد أيام وكنت مشتاقة جدا لأعرف من هو هذا الحبيب الذى رأته فى أوراق الكوتشينة وألحت عليها ورجوتها أن تخبرنى عنه. فقالت:

ستقابلينه فى ظروف عصيبة وستحبينه وسيحبك حبا عظيماً وسيجعل منك هذا الحب إنسانة رائعة عاقلة متفتحة، فليرعاك الله يا يابنتى.

ساعتها لم تشف هذه الكلمات لهفتى لمعرفة من هو فارس أحلامى. وبمرور الأيام نسيت هذا الموضوع ولم أفتحه مع جدتى مرة أخرى.

وقفت السيارة فخرجت من شرودى ووجدت نفسى أمام الفيلا ولا أعرف كيف عرف هذا الشاب المكان!؟

هل أخبرته بالعنوان عندما أعطيته مفتاح السيارة؟ هل فقدت التركيز إلى هذا الحد؟

ربما... فالحادث مخيف ومميت.

خرج الشاب الوسيم من السيارة ودار حولها وفتح لى الباب وأمسك بيدى وأخرجنى منها إلى الباب الكبير الذى سرعان ما فتحه الحارس وموظف الأمن.

قال الشاب: تفضلى وانتبهى لنفسك مستقبلاً.

أمسكت بيده وكأنى أرجوه ألا يتركنى ونظرت فى عينيه فوجدتهما جميلتان عميقتان جذابتان...

وشعر هو بمكنون نفسى ورد علىَّ قائلا:

لن أتركك وسأرعاك قدر استطاعتى ولن أتخلى عنك أبدا حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

فرحت بكلماته إذاً هو شعر بى. وقلت في نفسي: أكيد أحس بنبض قلبى ورعشة يدى.

طلبت منه الدخول قائلةً:

ألا تتناول أى مشروب بعد تلك اللحظات الرهيبة التى مرت بنا، هل أنت بخيل أم تجدنى لا أستحق جلوسك معى.

قال: معاذ الله لا تقولى هذا فإنه شرف لى.

وأمسك بيدى واستندت عليه ودخلنا إلى القاعة المخصصة لكبار الزوار وجلست بجواره وضغطت على الجرس الخاص بجميع الخدم فحضروا فى التو واللحظة وعرفوا ما حدث لى.

وسمعت أختى حديثى وهى جالسة على كرسيها المتحرك بالدور العلوى فأخذت المصعد المعد لها لتستعمله فى الصعود والهبوط، وجاءت مسرعة لتحتضننى وقبلتنى.

ومن شدة فرحتها بسلامتى حضنت الشاب وقبلت يده وفرح الجميع به ودعوا له بطول العمر والصحة.

مع كل هذه الحفاوة والفرحة والاحتفال به، إلا أنه كان هادئ النفس باسم الوجه فى خجل ملحوظ.

سألته عن اسمه فقال اسمي "عائد كريم" وتعجبت للإسم!

فقال: ليس لى ذنب فى تسميتى.

قلت له بسرعة: إنه اسم جميل وعظيم وأنا اسمى....

فقال أعرف إسمك فهو اسم جميل أيضاً.

قالت أختى ضاحكة: هل تعرف الطالع؟

قال: لا أبدا قرأته على تبلوه السيارة بجوار صورتها.

ذهبت بخيالى بعيدا وتعجبت إن المكان كان مظلماً والوقت عصيب ولم تتح له أى فرصة ليقرأ اسمى، هو فعلا مكتوب على تبلوه السيارة لكنى وضعته بعيدا عن قائد السيارة ولم يلحظه أحد حتى بالنهار. كما أنه مكتوب باللغة الانجليزية..

أرجعت ذلك لذكائه وقوة ملاحظته ثم سألته

ما رأيك باسمى؟

فقال ليلى إنه اسم جميل والله.

حضرت الخادمة تدفع عربة الشاى محملة بالفطائر وقطعة كبيرة من تورتة التفاح وبعض الفاكهة.. وجلس ثلاثتنا نتناول الشاى والحلوى وشعرت أنه أجمل شاى تذوقته فى حياتى، لكنى لاحظت أن عائد لم يأكل أو يشرب أى شيء ومع ذلك كان طبقه خالى من الطعام وفنجانه أيضا.

وابتسمت ثم قلت فى نفسى إنه يوم التهيئات فقد تهيأ لى الكثير من الأشياء، فياله من يوم عصيب بعد تلك الحادثة التى وقعت على مطلع الجبل.

هم عائد بالانصراف. ودعته وطلبت منه أن يوصله السائق إلى منزله لكنه رفض بإصرار وودعنى فى عجلة ثم خرج مسرعاً، لكنى استوقفته للحضور لتناول العشاء معنا فوافق من أجلى وقال:

سأفعل بإذن الله.

صعدت بسرعة لأشاهده من شرفة غرفتى وهو يسير مبتعداً عن الفيلا، إلا أنى لم أجده وكأنه تبخر، وأخذت أنظر فى كل الإتجاهات فلم أجده صاعداً أو نازلاً أو بين طرقات الجبل.

وقعت فى حيرة.. وقلت في نفسي: ربما يكون الظلام قد أخفاه عن مرمى بصرى.

جلست على كرسى قريب منى بالشرفة ورفعت رأسى للسماء التى كانت صافية ليس بها أى سحب سوى سحابة كبيرة تحيط بالمكان.

تعمقت بنظرى داخل السحابة وأنا شاردة فوجدتها كعينين كبيرتين جميلتين تنظران إلى وكأنها تحرسنى من شر سوف يقع..

وازداد تعمقى وأنا شاردة وبالعكس كان ارتياحى كبير هذه المرة لوجود تلك العينان التى تخيلتهما داخل السحابة.

دخلت إلى حجرتى وارتميت على فراشى وصورة العينان الجميلتان تملأن مخيلتى.. وقلت لنفسى سأسميهما العيون الحارسة.

دارت كل الأحداث التى قابلتها فى هذا اليوم فى رأسى من صعودى المعتاد للجبل والموسيقى العالية ورقصى خلف عجلة القيادة ثم انحراف السيارة والشاب الوسيم الذى أحببته من أول نظرة وكأنى أعرفه من سنوات طويلة، ثم ذهبت فى نوم عميق هادئ .

استيقظت فى الصباح متكاسلة لكنى سرعان ما أفقت ومارست رياضة خفيفة ثم اغتسلت وارتديت ملابسى ونزلت إلى البهو بعدما ناديت

خادم غرفة الطعام ليعد القاعة إعداداً خاصاً، كما أوصيت الطاهى بعمل عشاء فاخر لضيف عزيز جداً.

تناولت إفطاراً خفيفاً وأخذت سيارتى ثم ذهبت إلى العمل.. وكالعادة فتحت مذياع السيارة ورفعت الصوت إلى آخره وأنا أطرق بيدى على عجلة القيادة فهذا هو اسلوبى فى سماع الموسيقى...

إلا أننى هذه المرة كنت شاردة الذهن فى هذا الحب الذى طرق باب قلبى، وأنهيت عملى عصرا واعتذرت لرؤسائى عن الحضور فى المساء لظروف طارئة ووافق رئيسى على ذلك.

كنت فرحة لهذه الإجازة القصيرة والسويعات القليلة التى ستجمعنى بهذا الشاب الذى أنقذ حياتى واستحوذ على قلبى.

عند وصولى إلى الفيلا وجدت العمل فيها على قدم وساق، الكل يقوم بالتنظيف والتلميع وتحضير الأطباق الفضية الخاصة باستقبال الضيوف للغداء أو العشاء ووضع زهور جميلة قطفت من البستان المحيط بالفيلا، واستقبلتنى أختى فرحة بعودتى.

كنت سعيدة وأريد أن أقبل كل من حولى..

كنت فرحة وأنا أعلم سر سعادتى وهو أنى لأول مرة أستقبل ببيتى شاب وسيم أميل إليه، وأنا التى لم تفتح قلبها لأحد من قبل ربما بسبب الخلافات العائلية التى كانت بين أبي وأمي.

أخذت حمام سريع وقسط من الراحة فى سريرى...

وفى الموعد المحدد ارتديت أجمل ما عندى من الثياب، فستان جميل لونه برونزى فاتح بحمالات تكشف عن جزء كبير من صدرى يزينه قلب صغير من الذهب، ورفعت شعرى وأمسكته بمشط من نفس لون الفستان، وارتديت حذاء عالى مناسب، ووضعت على رقبتى وأذنى عطر غالى الثمن رائحته تدغدغ الأعصاب.

وفى الموعد المرتقب دق جرس الباب ورقصت دقات قلبى مع دقات الجرس، واستقبلت الخادمة الشاب وأدخلته حجرة الاستقبال التى تطل على حمام السباحة.

وفى لحظات بسيطة كنت بجواره أستقبله فى حرارة وأنا أشد على يده وابتسامتى تملأ وجهى، رد على السلام بأجمل منه وسألنى:

كيف أنت الآن؟

قلت له: انى قلقة ومشتاقة إليك وكأنى أعرفك منذ سنوات.

قال: وأنا كذلك..

جلسنا ننظر لبعضنا وعندما تتقابل عيوننا يخجل ويرمى بنظره بعيدا وعرفت مكنون نفسه أعتقدت أنه مال إلىّ أو أعجبته ولو قليلا ولكنه كان خجولا فى كل تصرفاته.

ومن قنينة على طاولة فى ركن القاعة أخذ وردة بيضاء ناصعة جميلة وقدمها لى بعد ما لمس بها شفتاه وفرحت بالوردة كأنه قدم لى كنوز الدنيا..

قلت لنفسى: ما هذا الذى أنا به، هل أحببت هذا الشاب كل هذا الحب لأنه أنقذنى من سقوط محقق من فوق الجبل أم أن هذا الشاب هو فارس

أحلامى الذى انتظرته طويلا أم أنها الأقدار ساقته إلى بعد طول انتظار لكى أعيش قصة حب تمنيتها من سنوات؟ هل سيبادلنى هذا الشعور الطيب الجميل أم أنه يجاملنى.. يخيل إلى أنه وقع فى غرامى..

وابتسمت فى نفسى وقلت سنرى فالأيام بيننا.. وسمعت صوته فجأة يقول لى:

فستانك جميل للغاية ما رأيت أجمل منه خاصة لأنك ترتديه.

شكرته على ملاحظته ومجاملته، وجاءت أختى وحيته بتحية ظريفة وكلمات رقيقة ومن خلفها جاءت الخادمة بالمشروبات المثلجة وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث، وحاولت جاهدة أن أبتعد عما حدث بالأمس حتى لا أفسد السهرة.

ثم جاء وقت تناول العشاء وجلس ثلاثتنا نتناول الطعام فى هدوء وراحة نفسية عالية.. لكنى لاحظت أن كمية الطعام التى وضعت أمام الشاب انتهت بينما لم ألاحظه أبدا يمضغ الطعام أو يضعه فى فمه.. سرعان ما قلت لنفسى ربما لعدم تركيزى لكثرة انشغالى فى التفكير فيه.

أكل كل طعامه وجائنى صوته يقول بوقار:

كان الطعام شهيا لم أتذوق مثله من سنوات..

فرحت بمدحه للطعام كما فرحت بالمغزى الذى وراء كلماته ألا وهو وجودى معه هذا الذى جعل الطعام له طعم خاص..

دعوته لتناول القهوة على حمام السباحة وخرجنا من باب البهو إلى الحديقة بينما تعزف أختى على البيانو لحنا جميلا هادئا من الألحان التى تثير الشجن وتلهب العواطف.

سألت صديقى عن حياته الاجتماعية فرد قائلا:

أعمل فى وظيفة بسيطة بشركة استيراد وتصدير فى العلاقات العامة ومن أسرة فقيرة وأب وأم ريفيين طيبين ليس لهم أحد سواى. أسكن فى آخر الجبل جهة الشمال.

خطبت فتاة أحببتها كثيرا كانت بالنسبة لى كل شيء الأمل والبسمة... النور الذى يضئ حياتى، إنها تشبهك كثيرا فى طيبتها وشقاوتها وجمالها، صورة منك وكأنك هى، إلا أن الفرق بينكما ملابسك ورائحة عطرك وغناكِ ووجاهتك، كانت تعمل مقص دار فى أحد بيوت الأزياء الكبيرة وكانت ماهرة جدا فى عملها ومع ذلك تتقاضى مرتب بسيط لأن صاحب العمل ينسب كل مهارتها فى العمل لنفسه.. يأخذ هو الآلاف وتأخذ هى الفتات.

كنت أنتظرها كل يوم عند مطلع الجبل أثناء عودتها مساء من عملها أقابلها بالحب والود والسعادة وتتشابك أيدينا سويا ونصعد الجبل سيرا على الأقدام إلى بيوتنا ونحن فرحين نمرح ونجرى وكأن الدنيا لنا وحدنا.

وسكت برهة.. وأخذ نفسا عميقا ولاح الحزن كل الحزن فى عينيه وسالت دموعه على وجنتيه بينما تنهد بصعوبة وقال:

لقد ماتت.. سقطت من فوق الجبل وهى عائدة فى سيارة العمل ومات معها السائق فى الحال.

لقد رأيت السيارة وهى تسقط وحاولت إنقاذها ولكن يد القدر كانت أعلى وأقوى من يدى.. سمعتها تصرخ أنقذنى، ولكن للحظات ثم اختفى صوتها وكأن الحياة قد توقفت ماتت كل خلجاتى لدقائق.

ثم استطرد قائلا بحزن مرير:

ماتت حبيبتى.. كانت أمى وأختى، الصديق الوفى والحبيبة المخلصة، لو عاشت لكانت زوجة صالحة وأما عظيمة لأولادى.. آه.. آه.

وهب واقفا مرتعشا ثم قال:

أتسمحين بكوب ماء.

تركته بعد أن ربت على ظهره معتذرة أنى سألته هذا السؤال الذى أثار فيه كل هذا الحزن وهرعت إلى داخل الفيلا لأحضر له كوب الماء ولأترك له لحظات يستعيد فيها نفسه ويلملم جراحه.

عند عودتى بكوب الماء لم أجده فى الحديقة ولا حول حمام السباحة.

وضعت كوب الماء على الطاولة وخرجت مسرعة إلى ناحية البوابة كى أراه فلم أجد أحداً ولا حتى موظف الأمن.

لم أسأل عنه.. ذهلت من موقفه وصعدت مسرعة إلى التراس لكى أراه وهو يسير فى اتجاه منزله أو نازلا من الجبل وكالمرة الأولى لم أره..

تلاشى.. ذاب وسط الظلام واختفى بين المنازل والأشجار ولم أر حتى طيفه..

لقد احتوانى هذا الشاب وامتلك فؤادى وتغلغل فى كيانى.. إنى فعلا أحبه بشدة وقوة ويا ليته يعلم ذلك ولكن خصمى شديد.. إنها خطيبته وحبيبته، إن حزنه أعمق مما تصورت فكيف أنافسها إذاً؟

وبسرعة أجبت نفسى: ولكنها ميتة والحى أبقى من الميت عموما.

أنا مصممة على أن يكون هذا الشاب رجلى وفارس أحلامى، سأصبر وأقاوم حتى أنال حبه وأملك نفسه وقلبه، وهو قريب من ذلك لأنى أعلم أنه أيضا يبادلنى ذلك الحب لكن الذكرى والوفاء يجعلاه يقاوم حبى.

لن يستمر فى هذه المقاومة طويلا بإذن الله وسأعمل جاهدة على أن أجعل حياته سعيدة ولن ألتفت أبدا لأى فروق مالية أو اجتماعية، فهو رجل حساس يملك من الشعور النبيل الطيب الكثير وهذه المواصفات تساوى عندى كنوز الدنيا.

مر أسبوع ولم يحضر لزيارتى أو ينتظرنى بمطلع الجبل كما فعل سابقا ولم أسمع عنه شيء.

دخلت حجرتى بعد عودتي من العمل فى منتصف الليل ولم أجد بنفسى شهية لتناول الطعام الذى أُعد لى، فأمرت الخدم برفعه وعدم إزعاجى.

وفجأة رن جرس التليفون فأفزعنى كثيرا لأنى كنت شاردة الذهن..

رفعت السماعة بسرعة فسمعت حلاوة صوته، سمعت شجن نبراته التى هزت فؤادى ..

قال: أما زلت مستيقظة؟

قلت له: وكيف لى النوم أو الأكل بدونك؟ إنى جالسة شاردة بالتراس أنظر للسماء لأرى سحابة صديقتى تؤنسنى دائما فى وحدتى فهى تحمل لى عينان جميلتان هادئتان تعوضانى عن عدم وجودك.. وعندما دق جرس التليفون خلع قلبى من مكانه إلا أنك فاجأتني بصوتك العذب وما أحلى المفاجأة..

قال: صحيح! هل تعوضك هذه العيون عنى؟

قلت: لا يعوضنى شيء فى الدنيا عنك، إنها عيون فى خيالى إنها برأسى فقط وليس لها حقيقة.. أما أنت فكل الحقيقة وكل الحب وكل الوجود..

ثم قلت له:

بحبك بحبك، إنك ملكت روحى وملكت قلبى، أصبحت بداخل عقلى وفى خلجاتى فى كيانى كله، وحشتنى يا حبيبى أين أنت؟

قال: سامحينى لخروجى المفاجئ، غضبت من نفسى لأنى أزعجتك بقصتى فخجلت وتركت الفيلا حتى أتمكن من كبت غضبى وحزنى وأنا وحدى، فرجائى أن تقبلى اعتذارى..

فأجبته بلهفة: لم أغضب منك أبداً بالعكس اقتربت منك أكثر، احترمتك لحبك ووفائك لها.. احترمت دموعك وحزنك.. لقد كشفت عن نفسك إنك فعلا أجمل إنسان رأته عيناى.. عائد أرجوك تعال.. وحشتنى أريد أن أراك أتحدث إليك فلا تجعلنى أغضب منك..

رد قائلا: انتظرينى يا حبيبتى سأحضر إليك غداً فى نفس الميعاد..

كان لكلماته وقع السحر.

طلبت خادمتى الخاصة بسرعة وأمرتها بإعداد العشاء لى لأنى شعرت بالجوع فجأة رغم أنى لم أكن جائعة قبل مكالمة عائد.

ولاحظت تعجب الخادمة! فابتسمت قائلة:

لا تتعجبى فأنا هذه الأيام متقلبة الأحوال.

وابتسمت الخادمة أيضا وخرجت مسرعة فرحة لتلبى لى طلبى، وحمدت الله أن عائد لم يتركنى حزينة وأرضانى قبل نومى.

جاء الميعاد وقابلته بكل ترحاب، وأصبحت لقاءاتنا متعددة ينتظرنى كل يوم عند مطلع الجبل.. أنتقل من مقعدى وأترك له مقعد القيادة ونذهب سوياً إلى الفيلا، وأحيانا كنا ندور حول الجبل عدة مرات ونحن نتسامر ونلهو ويضمنى إليه وأرتمى على صدره طول الطريق.

أصبح كل حياتى كل عمرى كل حاضرى إنه فارس أحلامى. قلت له عائد:

عيد ميلادى غدا وسأرجع من عملى عند الحادية عشر تقريبا، فهل ستحضر غداً لتشاركنى هذا اليوم الجميل؟

قال: وهل سيحضر عيد ميلادك جمع من الناس؟

قلت: إذا لم ترغب سأكتفى بك فأنت كل الناس عندى..

ابتسم بخجل وقال:

فى هذه الحالة سأحضر.

وفرحت به وجهزت الفيلا لحفلة عيد ميلادى. سأكون أنا وهو فقط.. سأرقص معه على كل الألحان التى أحبها.. سأحاول أن أنتزعه من حزنه، سيكون لى وأكون له..

لبست أغلى ما عندى من الثياب الفاخرة واشتريت له هدية زجاجة عطر فرنسى غالية الثمن ومن العطور التى أعشقها وأحب رائحتها.

وعندما حضر فى الميعاد كان أول ما فعلته أن أهديته زجاجة العطر فابتسم وقال:

من يهدى من؟

قلت له: نحن كيان واحد.

ولكنه تركنى وخرج إلى باب البهو الكبير وفتحه وهو يقول لى:

لك عندى مفاجأة..

وأحضر بوكيه من الورد به وردتان فقط.. وردتان لم أر مثلهما فى الوجود.. لهما رائحة كريمة ملأت المكان كله فى لحظات.. وردتان نادرتان تفوحان منهما رائحة تبعث فى النفس الهدوء والرضا والسكينة.

قلت له: يا إلهى إنها نادرة لم أر مثلها من قبل، من أين أتيت بهما.

قال لى بكلمات عذبة وهو مورد الخدين: إنها من الجنة..

قلت: فعلا إنها من اللجنة ما دمت أنت الذى أتيت بها سبحان الخالق.

أحضرت قنينة فضية مطعمة بالذهب ووضعت الوردتين فى الماء.

عاشت الوردتان معى مدة طويلة دون أن تذبل أو تضيع رائحتها، ما أندرهما وما أجملهما.

وذات ليلة كنت عائدة من عملى وفى نفس المكان الذى كان عائد ينتظرنى فيه عند مطلع الجبل وقفت بالسيارة وبحثت عنه فلم أجده.

ناديت عليه فلم يجب، ترجلت وأشعلت أنوار السيارة وناديت مرة ومرات بلا جدوى..

انتابني الخوف لوجودى فى هذا المكان الموحش خاصة وأنا خارج السيارة وشعرت برجفة فدخلت مسرعة إلى السيارة وفتحت المسجل ورفعت الصوت إلى أعلى درجة حتى يخرجنى من خوفى.

قدت السيارة لمسافة عدة أمتار وفجأة انحرفت السيارة بشدة وحاولت جاهدة أن أمسك بالفرامل العادية ثم فرامل اليد وكأن قوة شيطانية تجرنى إلى الهاوية، ودعوت ربى لينقدنى وصرخت بأعلى صوتى أين أنت يا عائد..

وفى لمح البصر كنت خارج السيارة ملقاة على الأرض والسيارة تهوى من أعلى الجبل إلى الأرض محدثة صوتا مدويا واشتعلت بها النيران فى الحال..

وضج المكان بصوت فرقعة وضحكات تقشعر لها الأبدان وأصوات حشرجة وجدال ونقاش ووعد ووعيد، ولغط هائل من هذا وذاك بينما أنا شبه مغمى علىّ.

وفتحت عيناى بعد برهة فوجدته.. وجدت عائدى منقذى للمرة الثانية.

حملنى وضمنى بقوة وسمعت صوته يعتذر لتأخره وكأنى كنت أحلم بوجوده..

خيل إلى أنى بين يدى عائد وكأننا نسبح فى الفضاء البعيد..

وبعد لحظات وجدت نفسى فى سريرى.. ولم أدر بعد ذلك أى شيء، بل إنني رحت فى سبات عميق..

فتحت عيناى ووجدت أبى وأمى وأختى وخدمى وعائد بينهم أيضا.

أطلعهم عائد على الحادثة.. قصة إنقاذى من الموت مرتين والسيارة التى انقلبت، ووجدت كل الموجودين يشكرون الشاب ويشدون على يديه لأنه أنقذنى من الموت.

ومع أن كل المحيطين بى كانوا أحبائى إلا أنى دخلت فى انهيار عصبى وتلاحقت صور الموقف كلها أمامى.. كل الصور من لحظة معرفتى بعائد حتى وجدت نفسى أطير فى الهواء.

لقد رأيت ذلك فعلا ومتأكدة هذه المرة أن عائد طار بى فى الهواء، وتذكرت كل شيء كيف تلاشى واختفى عندما تذكر خطيبته.. كيف فرغ الطعام من أطباقه وهو لم يأكله..

تذكرت الوردتان اللتان لم تموتا أبدا.. لقد قال أحضرتهم من الجنة.. تذكرت العينان اللتان تحرسانى ولمعت فى ذهنى صورته عندما ناديته وأنا أهوى من على الجبل مستغيثة فحضر فى لمح البصر.

من يكون هذا الإنسان أهو فعلا إنسان؟

وذهبت فى سبات عميق، ومرت مدة طويلة دون أن أراه أو يزورنى.

وعندما تقاربت للشفاء جاءتنى الخادمة مسرعة تحمل باقة ورود حمراء غاية فى الذوق والجمال..

لكن عندما وضعتها على الطاولة القريبة من النافذة فى البهو شعرت أن قلبى قد قبض وكأنى أختنق.

وبسرعة قرأت البطاقة التى على الزهور لأعلم من أرسل هذه الورود! وقرأت عبارة "أنت لى مهما طال الزمن أنت لى".. وفرحت بالكلمات.. إذاً الورود من عائد حبيبى الذى غاب عنى شهرا كاملا دون أن يترك تليفونه أو عنوان له أستدل عليه.

لقد أرسلت من يبحث عنه طيلة هذا الشهر دون أى فائدة لم يعرفه أحد.

قلت للخادمة:

من أحضر هذه الورود؟

قالت: سمعت جرس الباب يا سيدتى ففتحته ووجدت هذا البوكيه أمام الباب ولم أجد عامل الورد الذى أحضره فأحضرته لك فى التو.

تعجبت وقلت: ربما خجل من الحضور منتظرا شفائى.. سأصبر وسنرى.

مرت ساعتان وأقبل الليل ودق جرس الباب وسمعت الخادمة تهلل فرحة قائلة:

أهلا.. أهلا تفضل الهانم موجودة.

نهضت بسرعة من مجلسى لأستكشف الأمر فوجدته.. إنه هو بأناقته وكبريائه وخجله، وجدته يقف صامتا.. ونظرت له نظرة عتاب ثم سلمت عليه ودخلت به حجرة المعيشة وجلست أمامه ألتقط أنفاسى من انفعالى لرؤيته..

هب واقفا وهو يشير إلى البوكيه ذو الورود الحمراء الموضوع على الطاولة ثم نظر لى قائلا:

متى تسلمتى هذا البوكيه؟

قلت له: من ساعتين وأشكرك جدا، كلماته رقيقة لكنى لم أحبه كثيرا كما أحببت الوردتين اللتان أهديتهما لى فى عيد ميلادى.

فقال: أتسمحين؟!.. وذهب إلى الطاولة بجوار النافذة لينظر فى البطاقة المكتوبة!

وفجأة انطلق رعد شديد ودخان واهتزت القاعة هزة قوية وزلزال يرج الأرض رجاً وعاصفة شديدة، طارت الأشياء من أماكنها.. طارت الستائر والمفارش والخدديات، وطار بوكيه الورد أمامى من النافذة ولم أجد عائد فى مكانه.

انقلب كل شيء وخاف كل من فى البيت خاصة أختى والخدم..

حدث كل هذا فى لحظات وانتهى أيضا فى لحظات..

خرجت مسرعة إلى الحديقة أبحث عن عائد وعن بوكيه الورد فى كل ركن من أركان الحديقة وحول حمام السباحة وساعدنى فى البحث البواب وموظف الأمن وخادمتى الخاصة.. لكنى لم أجد شيئا مما أبحث عنه.

صعدت إلى غرفتى وخرجت إلى التراس لأنظر إلى الجبل ربما أجد عائد فى أى مكان بالجبل، لكن بلا فائدة..

جلست على حافة السرير أنظر إلى السماء خارج غرفتى فتخيلت أنى أرى شيئا غريبا تقشعر له الأبدان.

تخيلت شكل جثتين متلاحمتين لكن لونهما مختلفين الأبيض والأسود.

كان الضباب يملأ السماء فلم أتبين شكلا لهاتين الجثتين، إلا أنى تمعنت ونظرت بتركيز شديد وتبين لى أن أحدى الجثتين لمارد له شكل رهيب مخيف، كبير الجثة، ذو أنياب طويلة وأقدام يصل طولها إلى أمتار ومخالب حادة متسخة مقززة.

كما كانت للمارد عيون حمراء بارزة يرتدى عباءة سوداء بلون جلده تطير فى الهواء تحجب الرؤية عن عشرات العمارات.

إنه مخيف مخيف..

صرخت واستنجدت بمن حولى فأحسست بسرعة أن السحابة ذات العيون الحارسة الطيبة كأنها تحتضننى وتطمئننى وتهدئنى ومع ذلك ذهبت فى إغماءة..

عندما فتحت عينى وعدت للحياة عرفت أنى فى المستشفى فى غيبوبة منذ ثلاثة أيام ويعالجني الأطباء وتغذيتى بالمحاليل.

بعد قليل وجدت أبى وأمى وأختى وخادمتى الخاصة حولى يبتسمون فرحين بعودتى للحياة، لكنى كنت خائفة موهومة حزينة وأشعر أن أحداً ينقصنى وانتبهت قليلا..

إنه عائد هو من ينقصنى.. إنه فى قلبى وعقلى، وسألت عنه: أين هو يا أبى؟

فرد أبي يطمئنني: اهدئى يا ابنتى إنه سيأتى، إنه يحبك كثيرا، ولكن أظن أن شيئاً قوياً أخره عنك فصبرا جميلا..

وابتسمت لى أمى وشعرت بتحسن عندما نظرت لى.. وطلبت من الطبيب المعالج التصريح لى بالخروج من المستشفى، فقال فى هدوء وودك

اتعبتينا كثيرا يا ليلى حتى عدتِ إلينا، شدى حيلك وحاولى ترتاحى الآن لأن فى الراحة فائدة لعقلك وقلبك حتى تهدأ نفسك واهتمى بطعامك، ثم كتب لى دواء مهدئ.

خرجت فى صحبة عائلتى التى اجتمع شملها مرة أخرى وتناسوا كل الخلافات وعادوا ليتولوا رعايتى وهم متسامحين آسفين على تركهم لنا وعدم رعايتهم المباشرة الواجبة فى هذه الظروف..

دخلت إلى الفيلا وقوبلت بالحب والود من الجميع.. لكني مكثت أيام عديدة وحيدة بدون حبيبى الذى لم أسمع عنه أى شيء ولا أعلم مكاان بيته أو رقم موبايله أو عمله.

كل شيء حدث بسرعة وبشكل غمض.. معرفتى به والحادثتين وحبى الجنونى له وتعلقى به... كل هذا جعلنى لا أتمعن فى حياته لأعرفه أكثر.

انتظرت وطال انتظارى وطالت حيرتى وأخذت الأسئلة تتلاحق فى ذهنى:

من هو عائد؟ من يكون؟ هل هو إنسان؟ هل هو ملاك هل هو فى عقلى فقط؟

لكن كيف وقد رآه كل الناس، رأوه وأحبوه ووصفوه بالنبل والطيبة.

إذاً لماذا يتهرب منى؟

أنا أعلم جيدا أنه يحبنى وقد ضحى مرات بنفسه لينقذنى!!

ما ورائه؟ لماذا حزن عندما رأى بوكيه الورد وهو الذى أرسله؟ وما هذه العاصفة الصيفية التى لم يُعلَن عنها فى أخبار الأرصاد بالإذاعة أو التلفزيون؟..

وما هذه الزلازل والأشباح التى أراها والعيون الحارسة؟!

أين ذهب بوكيه الورد الأحمر؟.. لقد بحثنا عنه فى كل مكان حول التراس وحمام السباحة والحديقة بحثنا ولم نجده هل تبخر هو الآخر...

أين يذهب عائد عندما يخرج من الفيلا؟.. لماذا لا أراه يسير متجها إلى بيته إنه دائما يختفى..

أسئلة كثيرة تدور فى رأسى.. قمت من فراشى وأنا فى إعياء شديد من كثرة التركيز فيما يدور حولى.

كانت الساعة الثامنة صباحا، ارتديت ملابسى بسرعة ونزلت إلى الاستقبال ودخلت البهو وهناك على الطاولة بجوار النافذة نظرت إلى موضع بوكيه الورود الحمراء فوجدته فى مكانه ينزف دما..

سرت إلى الطاولة وأنا فى حالة رعب شديد فوجدت بقع كبيرة من الدماء فى مكان البوكيه متناثرة على الأرض والنافذة والحائط وخلف أحواض الزرع القريبة من النافذة..

تراجعت وقدماى لا تقويان على حملى إلى أقرب فوتيه مقابل للفوتيه الذى كان عائد يجلس عليه آخر مرة عندما كان فى زيارتى.

يا إلهى، لقد نسى منديله الأبيض لأجده فى هذا الوقت بالذات.

أمسكت المنديل بين يديّ وأنا متلهفة وضممته إلى صدرى ثم قبلته ونظرت مرة أخرى إلى الدماء المتناثرة على الأرض وهممت بأن ألمس الدماء لأتبين هل هى جافة أم حديثة..

كاد المنديل الأبيض يسقط على الأرض لكنى اختطفته بسرعة حتى لا يتسخ من الدماء المتناثرة فى كل مكان.. وصرخت أنادى على الخادم وسألته:

هل جرح أحد اليوم أو أثناء غيابى بالمستشفى؟

فقال الخادم: لا يا سيدتى نحن بخير.

سألته: ومن أين هذه الدماء إذاً؟

قال: أى دماء يا سيدتى؟!

قلت: انظر هناك على الطاولة والمفرش والأرض والنافذة!

ونظر الخادم محملقا فى وجهى وقال:

سلامتك يا سيدتى.. وفر من أمامى!

نظرت متفحصة للدماء مرة أخرى وكانت المفاجأة أنني لم أجد شيئا.. كان كل شيء نظيف ومرتب وجميل كعهدى بخدمى دائما.

دخلت في حالة من البكاء الشديد بعد اكتشافي أن ما رأيته كان وهماً.. ثم هرولت إلى سريرى مرة أخرى وارتميت عليه وأهملت نفسى وأهملت عملي.

ومنذ ذلك الحادث أعيش فى ذهول، وسيطر عليّ إحساس بأنى فى حاجة ملحة للعلاج فقد أحسست بالضياع ولم أعد كما كنت.. أسمع أصواتاً وصراخاً وتهديداً أثناء نومى فهل جننت؟

طلبت أبى لأتكلم معه فحضر متلهفا خائفا علىّ.

أخبرته برغبتي في السفر سرا إلى الخارج للعلاج حتى أعود كما كنت الفتاة المبتهجة القوية التى لا يهمها شيء فى الوجود..

أطلعت أبى عما حدث لي فبكى بمرارة وقال وهو يلاطفنى:

استعدى سنسافر بأسرع ما يمكن..

طلبت من أبى ألّا يعرف أحد بسفرى سوى والدتى، فأعطى الخدم إجازة مدفوعة وصرفهم، وودعت العيون الحارسة التى لازمتنى طيلة

فترة مرضى.. فقد كنت أشعر بها حولى فى كل مكان كما أشعر بها فى عقلى الباطن..

سافرت إلى أوروبا ودخلت إحدى المصحات النفسية وخضعت لعلاج مكثف تحت إشراف مجموعة من الأطباء ذوى الخبرات الكبيرة.

مكثت هناك شهراً، ثم شهر آخر للنقاهة أتنزه وأحاول العودة للحياة مرة أخرى، حتى شعرت أنى قد شفيت تماما ونسيت كل الصور المؤلمة، وأخذت من ضعفى قوة ومن حزنى خبرة ومن فراق الحبيب درسا لن يتكرر..

قلت في نفسي:

سأمسك بزمام نفسى حتى أعود ليلى الجريئة التى لا تعرف الحزن أبدًا. سأنسى هذا الحب الذى دخل حياتى فجأة وخرج منه فجأة.

قبل عودتى إلى بلدى بأيام ذهبت للمتابعة مع طبيبى الخاص بعلاجى..

جلست أتحدث معه كان شاباً قوى الإرادة فى حديثه جرأة كبيرة، تكلم معى عن هواجسى ورؤيتى للأشياء التى لم أجد لها تفسيرا.

كان فى كلامه تحد لعقلى ولموقفى وكأنه يعطينى علاجا بنبرة صوته التي تشبه السياط التي يجلد بها عقلى ليفيق ولا يستسلم، وقد تعودت على هذه الجلسات العنيفة الجريئة..

وضع طبيبى هذا يده على مواطن الألم ونجح فى علاجى وشفائى ومسح دموعى وأعطانى من قوته قوة..

وجاءت لحظة الوداع فأمسك يدى وشد عليها قائلاً:

إياكِ والاستسلام عودى للحياة.. اجرى، العبى، اضحكى فالدنيا ما زالت بخير.

ابتسمت له فقال لى: إنك مرشدة سياحية فهل تتكرمى وتسمحى لى بأن أزورك لأرى مدينتك؟

قلت مرحبة: إنه شرف عظيم أن تزورنى..

ونظر فى عيناى نظرة طويلة فهمت مغزاها فقلت:

تأكد أنى قوية وأنى سأفكر بك ولن أنساك..

فقال: أنا جاهز يا ليلى، فقد أحببتك ونريد أن نسعد العائلة بأحفادنا لو قبلتى الزواج منى.

أجبته بسرعة: دع الأيام تظهر ما تخفيه لنا واطمئن ستجد الإجابة المناسبة عندما تحضر لزيارتى وتأكد أنى عدت ليلى القوية..

نهض وقبل يدى وشكرته لكل ما فعله من أجلى، وعدت مع أسرتى إلى بلدى فرحة بعودتى.. فعلا أصبحت قوية مرة أخرى.

قبلت خدمى وأهديت لكل واحد منهم هدية جميلة تليق بصبره وعمله ورعايته لنا، وفرح الجميع واجتمع الشمل مرة أخرى.

وبعد أيام قليلة دق جرس الباب وسمعت الخادمة تصرخ وخرجت مسرعة إليها فوجدته.. وجدته..

إنه الشاب الوسيم، إنه عائد.. إنه الحبيب الذى شفيت من حبه، الإنسان الذى غير مجريات الأمور كلها فى لحظة.. الشاب الذى أحببته وكرهته وتمنيته، الشاب الذى ألهب عواطفى ثم تركنى حائرة ولم يكلف خاطره أن يسأل عنى..

قابلته ببرود وتمالكت نفسى وضغطت على كل خلجة من خلجات جسدى وأمسكت بنبضات قلبى استحلفها ألا تسرع وحبست الصرخة فى حلقى حتى باتت تخنقنى..

قلت له بصوت غير مسموع: تفضل!

وتقدمت أمامه وجلسنا فى حجرة كبار الزوار مثلما حدث في أول لقاء بيننا.. كان شاحب الوجه وأنامله كالثلج. جلس أمامى وقال:

هل تسمحين بأن أوضح لك أمراً، وأكمل قصتي.. عندما هربت منك فى أول مقابلة ولم أكمل حكايتى أتذكرين؟

قلت باقتضاب: أكمل من فضلك.

قال: ليلى، رجاء أن تتماسكى، حضرت اليوم لأبوح لك بسر خطير تهتز له القلوب وتقشعر له الأبدان وانتظرت عليك حتى تتعافين من حبى وتصبحى كعهدى بك قوية الإرادة وتضعى الأمر فى نصابه.

أعرف أنكِ سافرتى لأوروبا وأعلم أين كنت بالتحديد، واسم المستشفى والأطباء الذين عالجوك والمدة التى مكثت فيها تحت رعايتهم.

أعلم أنكِ تضغطين على أعصابك الآن وتحبسين الصراخ فى صدرك، وأعلم أن وجودك فى المصحة أمر لا يعلمه مخلوق سوى والدك ووالدتك وأختك.

بهت وتسمرت فى مقعدى:

كيف علم كل هذا؟ هل يتجسس علىّ؟ وإذا كان فهل يتجسس أيضا على مشاعرى؟

فجأة قلت له: من أنت بحق الله؟..

قال: ستعرفين كل شيء.. أتذكرين قصة خطيبتى التى توقف بنا الحديث عندما ذكرت لك أنها ماتت وتركتنى وحيداً فى الدنيا.. لقد بكيت وخرجت مسرعاً وقتها ولم تجدينى وبحثت عنى فى كل مكان من التراس الخاص بحجرتك وحول حمام السباحة وفى الحديقة وسألت نفسك أين ذهب يا ترى..

لم أقو على الرد، وقلت أحدث نفسي:

يا إلهى، إنه داخلى يرانى فى كل الأوقات، إنه ليس بشر.. ليس بشر.

نظرت له ولم أنبس ببنت شفة.. وواصل كلامه قائلا:

بعد حادث خطيبتى مرضت أيام كثيرة ومنعت نفسى عن الطعام والشراب وأحضرت لى والدتى شيخ الجامع وبعض علماء الدين وكانوا يقرءون لى القرآن ويقصون على مواقف من الإسلام لتقوينى على ما أصابنى.. حتى هدأت نفسى وسكن فؤادى وعاهدت نفسى أن أذهب

إلى نفس المكان الذى كنت أنتظرها فيه كل ليلة عند مطلع الجبل إكراما لذكراها..

وفى ليلة حالكة السواد ذهبت ووقفت فى المكان الذى رأيتنى فيه عندما أنقذتك أول مرة وبكيت بشدة عليها ولم أسمع صوت السيارة القادمة من شدة استسلامى للحزن لموتها فصدمتني بشدة، وارتميت على الأرض بمطلع الجبل أنزف من كل جسدى، ورجوت الله وأنا أحتضر أن يكشف لى سر هذا المكان اللعين الذى تكثر به الحوادث والمصائب..

قلت يا رب لا تأخذنى ولا تميتنى قبل أن أعرف هذا السر وأخلص باقى البشر من هذه اللعنة..

وسكت برهة.. ثم قال:

نعم أنا روح الشاب الذى دهمته السيارة!

وسكت مرة أخرى ثم نظر إلى قدميه فتسمرت فى مكانى ووجدت نفسى أتكور فى مقعدى وشعرت بصغر حجمى، وتقلصت كل خلجات جسدى وزاغت مقلتاى فى محاجرها وسمعت دقات قلبى كأنها طبول مزعجة تكاد تخرق أذناى دب لاب.. دب لاب..

إنه قلبى يريد الخروج من صدرى من بين ضلوعى حتى ولو حطم هذه الضلوع التى باتت تؤلمنى.

هذا القلب يريد أن يزيحها ويفسح مكاناً ليخرج ويبتعد عنى، لكن كيف لقلبى الخروج وبه كل هذا الحب لعائد.

أهذلتني المفاجأة وأقعدتنى إنى أصرخ بدون صوت أبكى بدون دموع أرتجف بدون حركة.

يا إلهى، إنه روح!

ورفعت يدى ووضعتها فوق قلبى المسكين وضغطت بكل قوتى أستحلفه أن يظل فى مكانه، وتصبب العرق من جبينى وشعرت بالبرد وبالخوف..

همست بضعف: بردانه بردانه!

وبسرعة كعادته دائما ألقى عليّ بمفرش كبير واحتضننى بقوة شديدة وأنا مستسلمة ولفحتنى أنفاسه اللاهثة فأدفأتنى، واستطرد قائلاً:

اهدئى يا ليلى، أرجوكِ تماسكى واستعينى بالله، أنا هنا لأقدم لك كل ما أملك من تضحيات لأحافظ عليكِ وأرعاكِ، لقد تخيرت هذه اللحظة بالذات لأكشف لك عن نفسى بعد ما تأكدت أنك عدت ليلى القوية المثقفة المؤمنة التى إذا عاهدت وفت بالعهد، وإذا أحبت ضحت بكل ما تملك، وإذا تكلم أحد معها كانت مستمعا جيداً له.

ثم مد يده وأمسك بهما يداى وضغط عليهما برفق حالم حانى ونظر فى عينى فأخذت نفساً عميقاً طويلاً زفرت معه كل ما بدخلى من خوف، وساد السكون بيننا دقائق..

قلت: اعذرنى فهذا آخر ما كنت أتوقع، المفاجأة أذهلتنى، فهي أكبر منى وما أنا إلا بشر.

وسالت دموعى تغسل فؤادى ووجنتاى.

قال عائد: نحن جميعًا من صنع الله سبحانه وتعالى، وأجسادنا ما هى إلا قشور لأرواحنا الطاهرة.

ابتسمت له فى هدوء ثم قلت:

رجاء أن تكمل وأن تحاول توضيح كل شيء حتى أقنع نفسى بحقيقتك ولو أنى أعرف أنك دائماً لا تنطق إلا الصدق وسأكون مستمعة جيدة كما تريد، فأكمل حديثه قائلا:

توفيت بعد دقائق من الحادث واستجاب الله لدعائى، فأثناء صعود روحى من جسدى رأيته..

كان مارداً متوحشاً قبيحاً متسخاً أسود يرتدى عباءة سوداء.. عملاق يقف تحت الجبل ورأسه فوق الجبل.. فظ كريه مخيف..

وسكت برهة ثم قال لي:

لقد رأيته أنتِ يوم الزلزال والورود الدامية التى أرسلها لك.. هو الذي أرسلها وكتب عليها «أنك له مهما طال الزمان». لم أرسل لك هذه الورود، ولذلك تجمدت فى مكانى عندما رأيتها وقرأت ما كتبه عليها..

كان يهددك، فهو يريد قتلك وكان يتوعدك بهذه الكلمات، وحاول قتلك أكثر من مرة لكنى أنقذتك منه.

كنت أحدق به وكأنى اسمع قصة من عالم الخيال أو أشاهد فيلماً للخيال العلمى ومع ذلك صدقته، فكل ما قاله صحيح.. لكن كيف علم أنى رأيت هذا الشيطان اللعين. إذاً لم أكن مريضة.

دارت كل هذه الأسئلة فى نفسى لكني فوجئت به يقول لي:

نعم لم تكونى مريضة أبداً فكل ما رأيته كان صحيحاً.. تقاتلت أنا وهو من أجلك.. كان هذا هو الزلزال والعاصفة.. كنا اللونين الأبيض والأسود متلاحمان.. هو يريد ذبحك وأنا أريد نجاتك.. أنا يا ليلى العيون الحارسة.. هل بحتِ بهذا السر لأحد؟.. طبعاً لا.. إنها عيناى اللتان كانتا تحومان حولك لأحرسك منه وأدافع عنك..

إنه الشيطان اللئيم الذى صمم على قتلك لأن له ثأر عندك ويريد أن يأخذه منك.. هذا ما جعل أمورى تضطرب، فقد أجهدنى كثيرًا وقاومته لأحميكِ ليلا ونهارًا، وكان همى وحزنى هو مرضك واهتزازك وفقدانك ثقتك فى نفسك.

لكن آن الأوان لتعرفى كل الحقائق وتعرفى أيضا أنى كنت أرسل لك من خلال عيونى حبى وأشواقى..

قلت بسرعة: نعم إنه أنت، إنها تشبه عيناك، يا إلهى كيف لم أدرك أنهما عيناك؟!

ابتسم وقال: ألم تطمئنى عندما كنت تنظرين إليها؟

قلت: نعم.. كانا ملاذى عند خوفى، ودفئى عند بردى، وسكنى عند هروبى، وعزوتى فى وحدتى.

قال: ها أنت الآن والحمد لله صدّقتى أنا ما تركتك أو هجرتك أو كرهتك ولكنها الأقدار.. لقد أحببتك فعلا لأنى ما عرفت الكره يوما، فمن كان مثلى لا يعرف سوى السلام. هل تذكرين أول حادث عندما قلت لك هيا أوصلك للفيلا وقلت أنت فى عقلك يا إلهى كيف عرف أنى أسكن فى فيلا وليس فى بيت..

ابتسمت له وقلت: إنك روح كريمة معذبة وسيفعل الله الخير حتى تستكين.

هدأت نفسى ووثقت بعقلى وشعرت أنى ما كنت لحظة مهزوزة أو مريضة. لقد كان كل شيء تحت سيطرتى النفسية لكن لم يكن عندى التفسير.

أكمل عائد القصة: عندما صدمتنى السيارة وأنا فى حشرجة الموت نظرت حولى فوجدته.. شيطان.. مارد.. فظ.. رهيب. سألته لماذا تقتل الأبرياء وترمل الأمهات وتخطف البسمة من الشفاه ألا تكتفى؟ ماذا فعل لك البشر لتكون بهذه الفظاظة والعنف؟

فصاح المارد صيحة عالية رجت الأرض وأخرجت ترابها ورملها فى الهواء فحجب الرؤية لدقائق، ثم قال:

البشر لعنة عليّ وعلى أولادى، إنهم أكثر من الشياطين يفعلون كل ما يحلو لهم يتسابقون بسياراتهم فوق الجبل فى الصعود والنزول، يضحكون

ويشربون الخمر داخل سياراتهم، يخطفون السيدات والبنات ويعتدون عليهن ثم يهربون تاركين جرائمهم ورائهم.. يسرقون بعضهم ويعتدون على بعضهم. إنهم يمرحون بالليل ويفسدون حياتنا ومنامنا وكأن الأرض وما عليها ما خلقت إلا لهم.. لا يبالون بأن بالحياة مخلوقات غيرهم.. إنهم يقفون فى الظلام يدسون لبعضهم المخدرات يصرخون ويصفرون يفسدوا آذاننا وآذان أولادنا الصغار.. لقد كرهتهم وأقسمت أن أذيقهم العذاب، خاصة الذين يصعدون الجبل ولا يكترثوا لاحترام الليل وسكنه إنهم يستحقون كل ما يحدث لهم.. وعاهدت نفسى أن أقتلهم وأحرق سياراتهم وأدفع بها من فوق الجبل.. كل من أجده مستهتراً بالحياة على الأرض سينال أبشع الجزاء فلا يهمنى عجوزا أو شابا أو شابة فهم جلبوه لأنفسهم.. أنا سيد المكان أنا الشيطان الأعظم. إنى حزين.. لقد قتل طفلى، جنى برئ دهسته سيارة، وطفلى الآخر أصيب بالصمم من الأصوات الصاخبة والموسيقى العالية التى لا تهدأ ليلا ولا نهارا.. إن من يفعلون هذا ليسوا بشر بل وحوش..

وأخذ المارد يئن ويتلوى ويشير بقبضته فى الهواء لكنى استوقفته وبهدوء قلت له:

الأعمال التى وصفتها لى من الخمر والمخدرات والتعدى على النساء والاستهتار بمن يعيشوا حولنا من الكائنات التى لا نراها والسرعة الجنونية فى قيادة السيارات، كلها من أعمال الشيطان.. أنت وأمثالك توحون لهم بذلك.. عليه يجب أن تكون سعيداً لا أن تكون حزيناً متوعداً

بالانتقام والقتل وسفك الدماء لأنهم يتبعوك.. يتبعوا عدو الله ألا وهو أنت وأمثالك.

أما حادثة ابنك الذى دهمته السيارة وقتل، فما هى إلا حادثة يتعرض لها البشر كل يوم فهذا قدر الله.. والذى أصابه الصمم من الصوت العالى أيضا حادثة وليس كل البشر مستفزين مفزعين..

ثم ماذا فعلت لك خطيبتى؟.. إنها ملاك برئ لا حول لها ولا قوة.. عائدة للمنزل مع سائق السيارة الخاصة بعملها بعد يوم شاق مضنى فما الذى أغضبك؟ ماذا فعلت لك أنا أو لأولادك؟

إنى شاب فى مقتبل العمر فى حالى ليس عندى سيارة ولا اذكر يوما أنى أزعجت أحد أو تناولت مخدراً أو شربت خمراً أو أى شيء من هذا القبيل؟

رد اللعين: إنى أوسوس للبشر ولكن للبشر طريقين طريق الخير وطريق الشر، فمن تبعنى تبع الشر فأنا أساعده بلا حساب وأسهل له كل معصية. السرقة، شرب الخمر، النساء كل المحرمات ثم أقتله إما بالإعدام صحيا أو نفسيا أو ماديا وإما بسفك دمائهم فهم قد اختاروا ولا لوم علىَّ.

أما حادث خطيبتك فسائق السيارة هو من قتل ولدى فألقيت به من فوق الجبل وحرقت سيارته هو ومن معه.

وأنت.. فإن شخصيتك الضعيفة وبكائك طول الليل فى الظلام تنتحب تارة وتصرخ تارة أقلق راحتى وراحة أولادى.

إن سكون الليل هو سعادتنا ويقلق راحتنا الضجيج.. فأنت لست الشخص الوحيد الذى قتلت محبوبته لذا تخلصت منك وسأظل أنتقم من البشر كل يوم..

قلت له: لا لن تفعل ولن أتركك تؤذى أحداً بعد الآن. وأقسمت وأنا بين يدى الله ألا تهدأ روحى حتى أحرقه وأجعله عبرة لكل شياطين الأرض أمثاله.. لكنه ضحك مستهزئاً فقلت سوف ترى.

منذ ذلك الحين وأنا متربص به لأفسد كل عمل يقوم به، أنقذتك منه مرتين على الجبل وأنقذتك فى المرة الثالثة عندما أرسل لك الورود الحمراء وتخيلت أنتِ أن بطاقته التى كتب عليها «أنت لى»، منى أنا..

لكن هذه الورود الحمراء كانت أولاده والدماء التى وجدتيها هى دماء ابنه القتيل، كانت موجودة بالفعل لكنك وحدك يمكنك رؤيتها، وعندما ناديت الخادم لتزيل الدماء.. محوتها أنا بسرعة حتى لا يراها خدمك فيخافوا من المكان ويتركوكِ وحيدة ويفروا، وعندما سقط منديلى الأبيض وأخذته بسرعة كنت أشغلك حتى أزيل الدماء من على الأرض لقد هاجمك فى عقلك فى منامك. وصور لك اللعين فى منامك أحلاما مفزعة وأسمعك صوت الجنى الصغير وهو فى حشرجة الموت ليفقدك عقلك.

قلت له: لماذا أنا يا عائد، لم أفعل له شيء!!

رد بسرعة: إنك مدرجة ضمن الذين يريد الانتقام منهم بسبب الموسيقى العالية التي تصدر من سيارتك فى منتصف الليل، وفى نظره هذا استهتار به كما علمت لأن سكون الليل ووحشته هى مملكته..

أحب أن أوضح لك أنه أثناء تشاجرنا وأجسادنا متلاحمة يوم أن أرسل لك الورود الحمراء. سألته لماذا يريد قتلك؟

قال: إنك من أطرش ابنه وأنت من تؤذين أذنيه فتربص بك ووعد بقتلك وسيقتل كل من هم على شاكلتك.. لذا أوحيت لك ولأبيك أن تسافرى بسرعة لأبعدك عنه وأستعد لأنتهى منه بالعديد من الآيات القرآنية.. وظللت أرددها لتكون سلاحى أمامه لأحرقه وأعود نفسى على قراءتها دون توقف حتى أتمكن من القضاء عليه وعلى كل أولاده وأعوانه وأتباعه.

لم تكونى أبدا مجنونة فكل ما رأيته وشعرت به كان صحيحاً لكن الوقت كان لم يحن للانقضاض عليه فانتظرت حتى حانت الفرصة المناسبة وداهمته عند مطلع الجبل وفاجأته بالآيات الكريمة قبل أن يأتى من يرث مكانه أو يهرب هو إلى مكان آخر. لقد أحرقته آيات الله الكريمة وقضت على حياته وحياة أولاده لقد أنهيت حياة الشر وخلصت البشر منهم جميعاً. أصبح الجبل نظيفاً ولن يضايقك بعد ذلك أبداً ولن تمرضى بعد الآن ستكونى حرة..

لكن عليك بالهدوء واحترام الأرض لأن بها مخلوقات غيرنا، قودى سيارتك والتزمى بالسرعة المقررة واسمعى الموسيقى المفضلة لديكِ

بصورة تجعلك سعيدة بشرط ألا تزعجي غيرك لا من البشر ولا من غير البشر.

ولى أمنية عندك يا حبيبة فؤادى، انصحى الناس من أجل أن يعم الهدوء كل الجبل، قولى للشباب المستهتر من يتبع الشيطان فمصيره الموت أو الجنون والقتل والمرض.. قولى كلمة للأمهات بأن يتفانين فى تربية أولادهن وعلميهم الفضيلة والدين أنت معك المال ووالدك له كلمة مسموعة فاسعدوا الناس يسعدكم الله.

وتأكدى يا ليلى أنى أحبك وما تخليت عنك منذ تقابلنا، فعيونى ستظل فى عقلك تحرسك وسأصعد أنا الروح الطاهرة إلى المكان الذى تأخرت عنه كثيراً لأنه كان وعد.

ليلى.. أستودعك أبي وأمي ووالدة خطيبتى رحمها الله، فهم فقراء ساعديهم وراعيهم من أجل عائد كريم. ولاتفقدى ثقتك فى طهارتك فحمايتك وتطهير الجبل كانا أعظم الأشياء التى فعلتها طيلة حياتى. كما أنى أسعدتك بإعادة والدتك ووالدك إليك وهذا أكمل فرحتك.

دعينى أوضح لك بأن اسم عائد كريم هو اسم عملى الذى أنا هنا من أجله، أما اسمى الحقيقى فهو هشام شمس الدين، ومن أجل ذلك عندما بحثتى عنى فى الجبل أثناء غيابى لم يتعرف أحد على اسم عائد كريم.

تخيلت أنى اندفعت إليه بلهفة بل بكل اللهفة وارتميت فى حضنه، فضمنى بقوة واحتضنته يداى وتمنيت أن أكون معه إلى آخر العمر وأن أموت لتصعد روحى معه..

أغمضت عيناى وأنا نائمة على صدره وشعرت بنفسى تذوب به شعرت بدمائى تجرى فى عروقه وأنفاسى تحتضن هواء صدره تغلغلت فى كيانه وأحسست بصبره وعشت فى خلجاته ارتشفت الحب بكل قوتى وتذوقت المعانى الجميلة فى صبره .. إنه أنقى حب فى الوجود إنه شهد الحنان وحلاوة النقاء واللقاء. قبلته قبلة طويلة أذابت روحى وكأنها تودع روحه.. ذاب جسدى وتجمدت أطرافى إنه حضن الوداع وضعت فى قبلتى له كل معانى العشق والعرفان بالجميل .. ثم قلت له أشكرك أشكرك على كل ما فعلته وقدمته لى من تضحيات وللبشر من أمن وأمان لك الله ولتنعم فى جنة الخلد . اطمئنى يا أيتها الروح العائدة إلى سكنها.. ولتهدأ نفسك فسأكون كما تمنيت وسأرعى والداك ووالدة خطيبتك وكل من يحتاج للمسة حنان.. سأقاوم الجهل وأحارب الإدمان والفساد وسأغسل عقول الشباب من الوهم وسأنير عقول الأمهات بالخير ليربين أولادهن وبناتهن كما تمنيت أنت. سيضاء الجبل وتفترش بالنور كل حبة رمل وحفنة تراب تغطى هذه الأرض الطيبة وعندى من المال ما يكفى.

وفجأة صرخت بأعلى صوتى صرخة هائلة وتقلصت أحشائى وخلجاتى وجف حلقى وارتجف جسدى فمع آخر كلمة تفوهت بها اختفى عائد كريم .. اختفى إلى الأبد واندفعت أسرتى من البهو القريب من الغرفة فقد سمعوا معى كل القصة من فم الشاب .. ألقيت نفسى بين أحضانهم واحتوانى حب أبى وعطف أمى وواسونى بكل الحنان وشد أبى على

يدى ثم قال أين ليلى التى فاقتنا فراسة وملاحظة وذكاء أنتى أقوى من كل هذا يا ابنتى تمسكى حتى تهدأ روح عائد كريم تماسكى لتسعديه فى مثواه .

بعد هذه التجربة العنيفة سأكون ليلى القوية يا أبى وستساعدنى فى الوفاء بكل ما أقسمت لحبيبى أن أفعله كما أوصانى. فرد أبى بحزم وعزم سأكون أنا ومالى وممتلكاتى تحت أمرك يا ابنتى لنلبى رغبة هذه الروح الطاهرة، وسأكلف أعظم الفنانين والمهندسين بأن يشيدوا لهذا الشاب الوفى تمثالاً من أنفس المعادن يوضع فى المكان الذى صعدت فيه روحه بأعلى الجبل عرفاناً بجميله على البشر فى اللحظة الحاسمة دخل طبيبى الذى عالجنى واحتوانى ورعانى وأمسك يدى قائلا لقد جائنى أنا الآخر .. وأوصانى بك وكأنه يبكى متوسلا ألا أتركك أبدا ٠٠ وقلت له وبأنفاسى المتلاحقه أأنا أترك ليلى !!! إنها أصبحت حياتى التى أتمناها وها أنا هنا حضرت إليكى مسرعا وعندما رأيت عائلتك تواريت لأضمن لكم دفء الموقف واحترامه وسأقف معكم جميعا فى كل ما نويتم عليه من أعمال فى إنارة الجبل وتقديم الخير وسأنشئ مستشفى لعلاج الحالات المستعصية وأكون أنا المسئول عن تقديم كل المساعدات لمن يريدها .. وبعد أيام سأنتقل اليكم لأكون معكم ، ونظرا الى أبى وقال يسعدنى أيها الرجل الكريم أن تكون ابنتك زوجتى فما رأيك ؟ وفرح كل الموجودين .. ولكنى سكت ثم تقدمت اليه وقلت له أيسمح طبيبى بإعطائى فترة نقاهة حتى أخلى ما بقلبى ليتمكن من احتوائك .. قال طبيبى أكيد وسأظل معك وستكونى

أما لأولادى وأسمى ابنى الأول عائد وابنى الثانى كريم ، هكذا قارئى المتميز انتهت.

انتهت قصتى مع هشام شمس الدين .. مع عائد كريم .. مع الورود الدامية .. مع الرعب .. مع الخوف .. مع الأرواح .. مع أعظم حب لم يكتمل ولكنها الأقدار.

تمت بحمد الله